بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان

مركز دراسات المرأة

مؤسسة بحثية مستقلة

معهد دراسات الأسرة

جامعة أم درمان الإسلامية

رحلتي إلى الإسلام

بقلم:

سمية جيمس

ترجمة:

أ. رقية محمود محمد عثمان

إشراف ومراجعة:

أ. د. خديجة كرار الشيخ

يونيو ٢٠٠٨

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

المحتويات

الإهــــداء

مركز دراسات المرأة بالتعاون مع معهد دراسات الأســـرة بجامعـــة أم درمان الإسلامية.

يقدم قصة امرأة انجليزية أدركت أنها لم تخلق سدى وأن لحياتهـــا غايـــة وأهداف. عاشت حياتها تأملاً فيما حولها بحثاً عن هذه الغاية وتلك الأهداف فهداها الله لنوره. كيف عاشت وكيف تأملت وعلى أي مرفأ أمان حطـــت سفينة رحلتها؟.

فإلى قصة سمية جيمس علها تكون نبراس هداية لنا ولكم.

مركز دراسات المرأة

إسلام امرأة

لا ذكاء ولا تزاكي، لا سعي ولا قول، لا وال ولا ولد!! فالهداية منه وحده سبحانه وتعالى وهي منحة قصوى كريمة.. هكذا تعبر الأستاذة سمية (جيمس) البريطانية الشقراء قصتها مع اهتدائها الى طريق الإسلام السمح.

تبدو حروفها عادية .. لكن وراء كل الحروف قصة رائعة حادة في التفريق بين الحق والباطل.. عاشتها سمية التي كان اختيارها لهذا الاسم تيمناً بالشهيدة الأولى ليس خبط عشواء بل لأنها ترى إنها قد نالت أجر الشهادة مثلها عندما بدأت حياتها مسلمة.. مؤمنة. موحدة أو هكذا تعيش. وهذا هو الجديد في قصة إسلام سمية وحياتها .

ليتكم ترونها وتسمعونها!! فكم من عبرة نأخذها من حكاياتها ، وكم من حلاوة نتذوقها من كلماتها ، وكم من طلاوة نتعرّف بها طريقاً جديداً للإيمان في زمان لا نجدُ فيه المسلمين إلاَّ بمنظار مُكبِّر .

"سمية أسلمت باختيارها ولم ترثه من الدين والدين لذلك هي تجربة للعظات "

طيب الدعاء لنا ولها بحسن الإسلام.

مركز دراسات المرأة

مقدمة المترجمة

اخترت كتاب (رحلتي إلى الإسلام) للمؤلفة سمية جيمس – الذي هو أحد إصدارات مركز دراسات المرأة بالخرطوم - لترجمته من الإنجليزية إلى العربية لأنه مرآة عاكسة وعصارة تجربة لامرأة إنجليزية عاشت طفولتها وشبابها في بيئة أسرية لا يمثل الدين حيزاً كبيراً في حياتها إلا أنه ترسخ في أعماق الأسرة الشعور بأن الدين يمد أطفالها بالسلوك الأخلاقي القويم مما جعل المؤلفة تتسم بفطرة دينية سليمة جعلتها تميل إلى حضور الطقوس الدينية في الكنائس المختلفة لعبادة الله، فسمت روحها وأصبح لديها دافعاً قوياً للبحث عن حقيقة الأديان ومعرفة الخالق فاهتدت إلى الإسلام وهو دين الفطرة.

فعند قراءتي لنص القصة بالإنجليزية أعجبت بأسلوبه الأدبي الرصين، فحاولت أن استخدم منهج الترجمة بتصرف وأن أتقمص شخصية المؤلفة حتى أنقل صُوره وإيحاءاته الإبداعية إلى القارئ بصورة أقرب إلى النص باللغة المصدر؛ وإن كنت في بعض الأحيان ألجأ إلى الترجمة الشارحة لبعض النصوص التي تحتاج إلى شرح وتوضيح. كما التزمت في أحيان أخرى بالترجمة الحرفية وذلك في النصوص القرآنية والعلمية والطبية.

لكن قابلتني بعض العقبات في أثناء الترجمة مما جعلني استعين ببعض القواميس الطبية والعلمية وتراجم معاني القرآن الكريم والكتب الفقهية والعلماء لتقريب الصورة الجمالية للنص لذهن القارئ الكريم.

وقد أعدت الترجمة مرات ومرات حتى أتمكن من إيصال الرسالة التي أرادت أن تبثها المؤلفة من خلال قصة حياتها لتكون هادياً للذين مازالوا يبحثون عن الحق.

مقدمة المؤلفة

كيف أصبحت مسلمة؟ لقد سئلت هذا السؤال عدة مرات وفي كل مرة تأتي روايتي مختلفة، وبالرغم من ذلك فكل رواية منها كانت صحيحة. والسبب في ذلك أن هنالك عدة أسباب وعوامل قادتني لإعادة روايتها. ورغم أن هنالك سبباً رئيسياً واحداً كان هو نقطة تحول وسبباً في اختياري للإسلام. فعندما أنظر للوراء لأيامي قبل الإسلام يمكنني أن أرى كم من تجاربي وملاحظاتي قد قادتني للنتيجة النهائية أن الإسلام هو أفضل السبل للإنسان ليحيا فوق هذه الأرض.

غالباً ما تبدو الحياة خليط من الأحداث المثيرة، حظوظ طيبة وأخرى سيئة سعادة وإحباط. لكن ثمة أشياء معينة إما حدثت فعلاً أو أثارت أحاسيس قوية في حينها علقت بذاكرتك بغير تحديدْ كأني أنظر إلى قطع لغز لعبة الأوراق المبعثرة لصورة أمامي على الطاولة وكل قطعة منها تعطي لمحة عن الصورة الأكبر. باعتناقي الإسلام بدا وكأن كل قطعة قد وضعت في مكانها واكتملت الصورة.

إحدى صديقاتي وهي إنجليزية مسلمة أيضاً، قالت إنها شعرت وكأنها طفلة تائهة في متاهات هذا العالم المضطرب وباعتناقها الإسلام شعرت وكأنها عادت إلى البيت.

سأبذل – بمشيئة الله – كل جهدي لأروي لكم الآن قصتي والأسباب العديدة التي دفعتني لاعتناق الإسلام.

سمية جيمس

فوسبورت/ انجلترا

البدايات

ولدت في عام ١٩٥٩م في قوسبورت، هامشير، وكانت وقتها مدينة ساحلية صغيرة في جنوب انجلترا، ترتيبي الثانية من بين أربعة أطفال. لدي أخوان وأخت. والديَّ من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وإن كان اسمياً. لا أذكر أبداً أنهما ذهبا للكنيسة في الآحاد أو لحضور قداس أو اعتراف (توبة). وهما مثل غالبية الإنجليز تحتل الشعائر الدينية حيزاً صغيراً في حياتهما. فالوقت الوحيد الذي ذهبا فيه للكنيسة كما أتذكر كان لحفلات الزواج، التعميد والجنائز. ويحتفلان بالكريسماس وعيد الفصح غالباً بوازع الإحساس القوي بالتقاليد التي لها جذور عميقة في الثقافة الإنجليزية.

لا أقول أنهما كانا سيئين أو آثمين، بل بالعكس تماماً عهدت والديَّ دائماً يعملان بجد صادقين وعطوفين. ومن الصعب تحديد تأثير تنشئتهما الكاثوليكية عليهما إذ أن الاثنين لهما وجهات نظر قوية جداً في موضوعات معينة مثل الزواج، الطلاق والقيم العائلية. بعد إسلامي فكرت كثيراً إذا قالا فقط "لا إله إلا الله" لكانا أفضل مسلمين.

ومع ذلك نادراً ما يناقش الدين في بيتنا، وإذا حدث، عادة ما يعبران عن خيبة أملهما في الكنيسة. دخلت أمي مدرسة الراهبات وهي صغيرة وكانت تنتقد المدرسة بشدة لتركيزها على التعليم الديني وعدم اهتمامها بالتعليم العام بصورة كافية. قالت أمي إنها في سن الخامسة عشر كانت تتلو كتاب مبادئ العقيدة الكاثوليكية من البداية إلى النهاية ولكنها تستهجىء اسمها بصعوبة. أما والدي فقد اعتقد أن الدين تسبب في مشاكل كثيرة في العالم أكثر من أي شيء آخر. كان يقول "انظروا إلى الحملات الصليبية، محاكم التفتيش وإيرلندا الشمالية".

تزوج والدَي في مكتب زواج مدني وليس في الكنيسة. لقد أخبرتني أمي كيف أن القس الكاثوليكي المحلي جاء إلى المنزل وأخبرها أنها "تحيا في الخطيئة" وأن كل أطفالها سيعتبرون غير شرعيين ولن يقبلوا في الكنيسة. نتيجة

لذلك شعر والديَّ بالغضب من كلماته ولم يحاولا تعميد أيٍ منا ، ولكنهما أخبراني بأنني تم تعميدي لاحقاً.

فقد أخبرتني أمي أنه وأنا طفلة صغيرة أصبت بالالتهاب الرئوي وأدخلت المستشفى. ولم يتوقعوا أن أحيا. كما أنها أُخبرت أن الإنسان إذا مات دون أن يعمد حتى ولو كان طفلاً فإنه لا يمكن أن يدفن في مقابر المسيحيين وأن روحه تظل هائمة للأبد وهذا نتيجة "للخطيئة الأبدية" التي اقترفها آدم وحواء في جنة عدن. لذلك فإن كل طفل يولد ملوثاً بالخطيئة الأبدية ولا يمكن أن يطهر إلا بتعميده.

واذكر أنني كنت أتعجب "كيف يكون الطفل البرئ مذنباً وكيف يلام على فعل ارتكبه شخص آخر؟". بعد مرور عدة سنوات، وعندما أسلمت عرفت أن كل طفل يولد بريئاً ولا تتحمل نفس وزر نفس أخرى وإننا مسؤولون عن أنفسنا فقط أمام الله.

هناك اعتقاد عام لدى عائلتي والناس من حولي أن المشاعر الدينية من الأفضل للشخص أن يحتفظ بها لنفسه ولا يعبر عنها. كان من يعرف بأنهم متدينون دائماً ما يتعرضون للإهانة والسخرية ويوصفوا بأنهم دراويش ومدمني قراءة كنزوات عيسى ويشيرون بالإنجيل. ويعتبر المتدينون حمقى وغير أكفاء و إنهم يحتاجون للدين كمعين يرتكزون عليه. ولكن بمرور الوقت بدأت تنمية مشاعري الروحية الخاصة بي. إن أي شخص يعرف هامشير يعلم كم هي جميلة وذات ريف غني بالاخضرار ،وذات مناظر خلابة وقرى جميلة رائعة. يقع بيتنا على ساحل البحر وعليه فهناك الكثير مما يلهم قلبي للاعتقاد بوجود الخالق الذي أوجد هذا – وهو الله - أتذكر كيف كنت استلقى على الساحل الأخضر، ووجهي إلى أعلى أحدق في السماء الزرقاء وأتخيل نفسي أحلق عالياً في الفضاء إلى ما وراء المجموعة الشمسية، وكوكبنا. ثم أنظر إلى الوراء أرقب أرضنا تصغر وتصغر حتى تبدو كأنها ذرة من غبار وأنا مجرد ذرة غبار في تلك الذرة.

كم أنا ضئيلة وكلنا كذلك في هذا النظام الكبير، إلا أن ربي يحبني. إنه يحبنا جميعاً ويرعانا رغم أننا لا نحفل به. ما أعظم حبه وما أعظم الله. وخوفاً من السخرية احتفظت بمشاعري وأفكاري هذه لنفسي.

تبدو معرفتي بالأديان الأخرى قليلة مشوشة ومعظمها استقيتها من مشاهدتي للتلفاز وقراءتي في كتب القصص. كل الأديان الأخرى كانت تبدو غريبة يمارسها غرباء ملونون شرقيون ذوو طبيعة وثنية ولديهم عدة آلهة ومؤكد أنهم غير إنجليز. ولسوء الحظ وضع الإسلام في نفس السلة وتم تجاهله. لم أتلق دراسة منهجية في المدرسة عن الأديان الأخرى كان التركيز على المسيحية، فالدين هو المسيحية والمسيحية هي الدين!.

على الرغم من أن والديَّ لا يباليان عامة بالدين إلا أنه بقيٌّ عندهم وعند كثير من الناس، الشعور بأن بعضاً من التعليم الديني مهماً لمد أطفالهم بالسلوك الأخلاقي القويم. لذا أرسلت أنا وأخي الأكبر لمدارس الأحد كل أسبوع مع كثير من الأطفال لهذا الغرض.

كنت أُلقن هناك كل مساء أحد قصص السيد المسيح والأنبياء الذين قبله مثل نوح و موسى وداؤود و يوسف. كانت القصص مشوقة لطفل، لكنها تبدو كخرافات وأساطير، وذلك لأن التركيز كان على الأحداث أكثر منه على الدرس الأخلاقي المستفاد منها. وكانت قصصي المفضلة تلك القصص الهادفة التي رواها السيد المسيح عن السامري الصالح، الابن الضال وفلس الأرملة. وبالرغم من أني عمدت لكنني لم انتسب لكنيسة معينة كاثوليكية، بروتستانية أو غيرهما. ولذلك لم أشارك في أي من الطقوس المسيحية مثل الاعتراف و تثبيت التعميد أو القداس.

غير أن، النزعة الروحية لدي قادتني بلا مقاومة نحو الكنيسة ووجدت نفسي أحضر الطقوس الدينية في الكنائس الكاثوليكية والبروتستانية والميثوديثية، وبالنسبة لي أنه نفس الرب وكنت أريد فقط مكاناً لأعبده فيه.

لم أفهم قط ولم أجد رغبة في معتقدات الكنيسة. ولم أفهم لماذا تعددت الكنائس؛ فبفهمي الطفولي البسيط لكي تكون مسيحياً طيباً لا بد أن تؤمن بالرب وأن تكون أفضل إنسان بقدر المستطاع. لقد لقنت ثالوث الرب الأب، الابن والروح القدس، ولم أشك أو أفكر فيه بعمق فقط تقبلته كأنه واقعاً.

وجدت التعبير عن مشاعري في الغناء فالتحقت بجوقه الكنيسة البروتستانية عندما كنت في الحادية عشر من عمري.

لقد شعرت بسموٍ روحي عظيم أثناء ترانيم الرب وأصبحت الجوقة نقطة مضيئة في حياتي في ذلك الوقت. كما أعطتني الفرصة لتأمل الطقوس المسيحية المختلفة. ولكن أقلقني شيء واحد بوجه خاص عند حفلات الزواج والتعميد والقداس. رأيت الناس يركعون أمام القس عند المذبح بينما هو واقف أمامهم ويده فوق رؤوسهم يباركهم. وشعرت بعدم الارتياح لذلك بدا لي مذلاً للناس أن يركعوا أمام إنسان آخر حتى لو كان قسيساً. أتذكر جيداً قولي لنفسي: "إنني لن أتزوج في الكنيسة إذا كان ذلك يعني أنه لا بد أن أركع أمام القس". أحسست أنني ربما أصبحت متغطرسة ومتعالية. ولكن عند اعتناقي الإسلام اتضح صحة اعتقادي حينما علمت أنه لا يجوز أن ينحني أي إنسان أو يسجد أمام آخر إلا أمام الله فقط.

الإنجيل والقس

تعودت الاحتفاظ بالإنجيل تحت وسادتي وأن أقرأ منه جزءاً يسيراً قبل نومي. كان هذا سراً دفيناً لم أرغب في أن يطلع عليه أحد حتى والديَّ. وفي أحد الأيام عندما خرج والديَّ، كنت أرتب البيت لوالدتي وأثناء ترتيب سريرها أدهشني وجود الإنجيل تحت وسادتها أيضاً. في تلك اللحظات شعرت بأنني قريبة منها جداً وبطريقة خاصة، ربما كان لديها مثل إحساسي وهي أيضاً تخاف أن تظهره. لم أخبر والدتي بهذا الأمر حيث شعرت أنني ربما أحرجها.

غالباً ما أقرأ من كتاب العهد الجديد علماً بأنني حاولت أحياناً كثيرة القراءة من كتاب العهد القديم. لقد وجدت العهد القديم عسير الفهم كثير التفاصيل مثل مَنْ أنجب مَنْ؟ وقد كتب بطريقة صعبة الفهم على طفل. كما أحسست في ذلك الوقت أيضاً بالانزعاج للطريقة التي يصور بها الرب حيث يظهر أحياناً في شكل طاغية في السماء (استغفر الله) يقتل هذا وذاك على هواه بدون أي مبرر. لقد ضايقني هذا الأمر وأحسست بأنه لا يتفق مع فهمي للخالق الرحيم الودود، وعليه توقفت عن قراءته. لقد سمعت من مختلف رجال الدين المسيحي أنه ليس من الضروري الاعتقاد في كتاب العهد القديم حتى تكون مسيحياً. وبالرغم من أنني شعرت بالارتياح لهذا الرأي، إلا أنه جعلني أتساءل عن فائدته ولماذا نصر على تسميته بكلام الله؟.

ركزت على كتاب العهد الجديد، لقد درست أن الإنجيل كتب من أربعة وجهات نظر مختلفة لحواريي السيد المسيح وذلك يفسر اختلاف كل نسخة عن الأخرى. لاحقاً علمت أن لا أحد في الحقيقة يعرف بالتأكيد من الذي كتبها، ما عدا إنجيل القديس لوك الذي كتبه بعد سبعين عاماً من صعود المسيح إلى السماء. حيرني هذا الأمر، وبالرغم من ذلك لم أشك في صحة هذه الأناجيل. بالنسبة لي اعتقد أنني كنت أبحث عن دروس أخلاقية والهداية ولم أكن اهتم لمثل هذا الخلاف. كان اهتمامي الأساسي يتركز على تعاليم السيد المسيح

وأفعاله. لقد أحببت بصفة خاصة رسالة السيد المسيح عن الحب والرحمة لكل الناس بغض النظر عن الجنس واللون أو العقيدة، عن عطفه على الأطفال، عن ثقته في الرب وشجاعته في مواجهة أعدائه. ظللت أسمع وصف السيد المسيح بحمل الرب الوديع لكنه لم يكن حملاً وديعاً بالنسبة لي. لقد تحدث بقوة وعنف عن نفاق الكهنة، وطهر الهيكل من المرابين وأدان شعبه الذين ضلوا عن تعاليم النبي موسى. إنه لا يخاف إلا من الرب ليس مثلي. كنت أخاف أن أحكي حتى لأعز صديقاتي عن نزعتي الروحية وأنا أتمنى أن تكون لدي شجاعته.

من نصوص العهد الجديد التي لها تأثير كبير عليَّ النص الذي يقول "كن كاملاً كما إن أباك كاملاً في السماء". أتذكر أنني اجتهدت في أن أكون كاملة في حياتي من يوم إلى يوم.وعند الليل قبل نومي استعرض أحداث اليوم وأقيم سلوكي، من خاصمت؟ ما الخطأ، كيف أكون أفضل غداً؟ لسوء الحظ هذه العادة لم تستمر طويلاً، ولكنني أتذكر كيف أنني دهشت عندما اكتشفت بعد إسلامي أن أحد الصحابة كان يفعل نفس الشيء!.

واصلت الحضور لجوقة الكنيسة حتى تعرضت في أحد الأيام لتجربة غير سارة غيرت كل ذلك. وقبل أن أروي القصة من المهم معرفة خلفية عن الاحترام الذي أكنه ويكنه أغلب الناس للقساوسة والكهنة. لقد نشأت على الاعتقاد بأن هؤلاء هم رجال الرب ويتحلون بأخلاق عالية، ومخولين بسلطة غفران الخطايا، ونقل البركة وسماع كل أسرارنا السوداء الدفينة في غرفة الاعتراف. إنهم جديرون بالثقة واعتبرهم مثل أبي لذلك جاءت الحادثة التالية كصدمة لي!.

في أحد الأيام حضرت مبكرة لتمرين الجوقة ووجدت باب الكنيسة مغلقاً، كانت السماء تمطر عندما تقدم مني القس ودعاني للانتظار في منزله حتى حضور رئيس الجوقة. كانت زوجته في المطبخ وقادني عبر منزله الجميل يريني غرفه المختلفة إلى أن وصلت إلى أستوديو تصوير فوتوغرافي صغير. هنالك أراني صور لنساء قام بتصويرهن عاريات، وحاول إقناعي للتصوير بنفس الطريقة

– أي عارية - ، كنت في حوالي الثانية عشر من عمري في ذلك الوقت، وفي حالة من الخوف جريت خارج منزله ولم أعد لكنيسته مرة أخرى، حقيقة، توقفت عن الذهاب إلى أي كنيسة أخرى. لم أفقد إيماني بالرب، لكن ثقتي في القساوسة اهتزت كثيراً، واستغربت لماذا تعطي الكنيسة سلطة واسعة لمثل هؤلاء الرجال. إنه يستطيع غفران الخطايا، ويركع أمامه الناس بينما أبي ليس بالرجل المتدين ولكنه أفضل منه بكثير. بدأت أسمع قصصاً كثيرة عن القساوسة وبدأ فقدان الثقة فيهم يزداد عندي. توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة لكن ما زلت أؤمن بالرب. لقد كنت في حيرة وأنا في بداية مرحلة المراهقة، حيرتي تطورت للأسوأ.

سنوات المراهقة

عندما وصلت لسنوات المراهقة والتمرد، حافظت على إيماني السري في الرب، واعتبرته دائماً بجانبي. فهو أفضل أصدقائي ووحده هو الذي يفهمني، وهو فقط الذي يعرف كل شيء عني، بما في ذلك أسراري المظلمة. صلواتي للرب كانت كأنها حوار مع صديق. أحدثه بكل مشاكلي وهمومي، وأطلب هدايته وغفرانه.

ومثل كل الفتيات في سني بدأت اهتم بمظهري، وآخر الموضات، ونوادي الموسيقى، والأولاد والمكياج. وعندما حاول أبي التدخل ومنعي من أن أنغمس في هذه الأشياء، دعوت الرب أن يجعل والدي أكثر عقلانية. كانت كل صديقاتي في المدرسة لا يتحدثن إلا عن آخر أصدقائهن من الفتيان وإلى أين ذهبن في الليلة السابقة، بينما كنت أشعر بأنني معزولة لأنه ليس لدي شيئاً ممتعاً أتحدث عنه.ودائماً أتذكر أنني صليت للرب حتى يسمح لي والدي أن يكون لي صديق، حتى لا تنظر لي زميلاتي بالمدرسة بازدراء.

وكثيراً ما اصطدمت بوالدي، لأنني كنت مقتنعة بأنني على حق وأنه شديد القسوة عليَّ. أيضاً شعر أفراد عائلتي والأصدقاء والجيران أيضاً شعروا أن والدي كان شديد الصرامة حتى أن أمي قالت "إن والدي يؤمن بقيَّم فكتورية. وأنه بعيد عن مواكبة الزمن". في استعادتي للأحداث السابقة اعتقد أن والدي كان على حق في تصرفه بتلك الطريقة، لكن في ذلك الوقت لم أفكر هكذا.

عوضاً عن دعمه والتعاطف مع موقفه وجد نفسه مواجهاً بجدار من الانتقادات العنيفة جعلته يتراجع ويمنحني مزيداً من الحرية وإن كانت حرية محدودة تتلخص في السماح لي بالخروج لليلتين فقط في الأسبوع ويجب عليّ أن أكون في المنزل في وقت محدد. ولا بد أن أعطي كل التفاصيل أين سأذهب ومع مَنْ وتم منعي من مصاحبة الفتيان.

فالتزمت بهذه الشروط ما عدا الجزء الخاص بالفتيان؛ واعدتهم سراً حتى اكتشف أبي ذلك بالصدفة وأدى هذا إلى مواجهة رئيسية أخرى عندما كنت في

السادسة عشر. قبل أبي ذلك على مضض، أن ما أفعله حتمياً، إنه الآن أو لاحقاً سأفعل هذه الأشياء، وهكذا رضخ أخيراً، لكن بقيت شروط العودة للمنزل في الوقت المحدد قائمة.

لقد كانت قوسبورت في ذلك الوقت مدينة صغيرة معظم سكانها يعرف بعضهم بعضاً. فقد ذهبت أمي إلى المدرسة مع معظم آباء صديقاتي. من الصعب أن تقوم بأي عمل أو تذهب إلى أي مكان دون أن تصل المعلومات في آخر الأمر إلى الآباء. أدركت أن بعض صديقاتي، حتى وهن في سن الرابعة عشر، قد مارسن الجنس مع أصدقائهن، وفي نهاية الأمر تبقى هذه الأشياء طي الكتمان بالذات وسط الفتيات. هنالك نوع من المعايير المزدوجة والتي على أساسها يحكم على البنت بأنها بغي إذا انكشف أمرها، أما إذا فعل ذلك الفتى، إذاً فهو رجل. وعليه يبقى هذا الأمر سراً بين الفتيات ويعرفنه جميعاً لكن يترددن في الحديث عنه. أما الفتيان فقد عرفوا بالمباهة بمغامراتهم وإن لم توجد فإنهم يختلقونها بغض النظر إذا أدى ذلك إلى تشويه سمعة بعض الفتيات البريئات أم لا.

بالرغم من أن وجهات نظر المجتمع تغيرت كثيراً في السنوات الأخيرة خاصة فيما يلي القيم العائلية، والسلوك الأخلاقي والجنس والمرأة، فإن معظم التغيير حدث كرد فعل لمواقف الكنيسة المتشددة في الماضي.

هذا التغيير كان كاسحاً، لدرجة أن كثيراً من القيم الإيجابية التي حافظت عليها الكنيسة في ذلك الوقت تم التخلي عنها لأخرى سالبة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك موقف الكنائس في الماضي من الجنس. إذا نظر الإنسان في كتاب العهد الجديد خاصة كتابات القديس بول، يلاحظ بوضوح شديد أن العزوبية تعتبر الوضع المثالي للرجل والمرأة أما الزواج فإنه يعتبر نزولاً للطبيعة البشرية. أما الجنس فقد اعتبر في الماضي كشيء تمنحه المرأة لزوجها إرضاءً لطبيعته الحيوانية ومن أجل إنجاب ذرية. فالمرأة الصالحة عليها ألا تستمتع بالجنس بل تعتبره مجرد واجب بغيض. وعلى كلٍ فإن ردة الفعل لهذه النظرة

الضيقة وغير الصحية تجاه الجنس كانت قفزة كبيرة في الاتجاه المعاكس. في انجلترا الآن كما في معظم الدول الغربية نوع من الفوضى الجنسية، حيث تلاشت الحدود وانتهك كل قانون حتى أنني سمعت مقولة تقول أن هذا البلد مهووس بالجنس. وعلى الرغم من أن المفاهيم المريضة الماضية نبذت إلا أن القيم التي كانت تقدر بشدة شُوهت أو أتلفت كلياً. فممارسة الجنس قبل الزواج أصبحت القاعدة في المجتمع، والزنا في ازدياد والعذرية أصبحت دعابة.

إن نتائج هذا التدني في المستويات يمكن ملاحظته بوضوح في المجتمع: من خلال الارتفاع في معدلات الأمهات غير المتزوجات والطلاق، والإجهاض والقبول المتزايد لمجتمعات الشذوذ الجنسي والسحاق وبالطبع انتشار مرض العوز المناعي "الإيدز".

إن الفتاة أو المرأة هي التي تتحمل العبء الأكبر من كل هذا. إنها هي التي تُهجر حاملة طفلاً وهي التي تبحث عن الإجهاض وهي التي تُترك وحيدة، تكافح لتربية طفلها أو أطفالها بدخل بسيط. ربما اكتسبت النساء مزيداً من الحقوق والاستقلال الاقتصادي، لكن على المستوى الاجتماعي يعانين الكثير. يجب أن أضيف هنا أن أعداد النساء اللاتي يخترن تربية الطفل بأنفسهن في ازدياد كما يرفضن أي إعانة من الأب بل ويتم استبعاده من حياة طفله تماماً ولهذا فإن الرجال يعانون أيضاً.

وعلى كل حال فإن الطبيعة البشرية قوة دافعة والرغبة في إيجاد الشريك المناسب للزواج وتكوين أسرة ما تزال موجودة. لا توجد وسيلة محددة يمكن أن يحقق بها الشخص كل ذلك؛ فالفتاة أو الفتى لا بد أن يعملا على إيجاد الشريك المناسب. والإنسان عادة لا يتعمد الخروج للبحث عن شريك حياة ولكن يأمل في لقاء من يعتبره مناسباً له ليرتبط به. سن المراهقة والعشرينات تعتبر وقتاً للاستمتاع وعليه لا يشجع الشباب على تحمل مسؤولية الزواج؛ بل يشجعون على الاستمتاع بشبابهم وحريتهم. فهم ينغمسون في شهواتهم ولا يتقيدون باكراً بالزواج. أما

الفتيات فيملن غريزياً نحو الزواج وبنظرة رومانسية يأملن دائماً في أن يكون الزوج المناسب في أقرب منعطف. ولكن لا يصرحن بذلك علناً خوفاً من إضاعة الصديق. يبقى الأمر نوعاً من الخدعة السيكولوجية حيث يتظاهر الفتى بأنه جاد بينما هو غير ذلك وتتظاهر الفتاة بأنها ليست جادة بينما هي كذلك. الأول يأمل في جذبها بمعسول الكلام والوعود الكاذبة لتخضع له وتأمل الفتاة في الاحتفاظ به وجذبه بالتظاهر بأنها ليست سهلة الاستسلام. في بعض الحالات تذهب بعض الفتيات بعيداً فيحملن من أصدقائهن للاحتفاظ بهم، بالرغم من أن معظمهن لا يعترفن بذلك. وفي معظم الأحوال تفشل هذه الحيلة فالشاب عادة ما يهرب بمجرد اكتشاف الحمل.

وعندما تصل الفتيات سن العشرينات يدب فيهن الملل من هذا اللهو وييأسن من كل شيء. أعرف هذا لأنني فعلت ذلك. أما عندما يكبر الفتيان فإن رغبتهم في الاستقرار تصبح أقوى ودائماً يتزوج معظمهم إلا أن أغلبهم للأسف يطلقون.

في بداية سنواتي كمراهقة وخلالها، أصبح الحصول على الفتى المناسب شغلي الشاغل كما هو حال كل الفتيات في سني. من أجل هذا يصرف كثيراً من الوقت والمال على لبس أجمل وأحدث الموضات، والماكياج، والعطور والتسريحات والتخسيس لفقد بعض الأرطال لجعل أنفسنا جذابات بقدر الإمكان. ثم نذهب إلى الأماكن التي يذهب إليها الشباب على أمل الحصول على الشريك المناسب. حفلات الديسكو والحانات والبارات هي أماكن اللقاء للشباب المتطلع، حيث تصدح الموسيقى الصاخبة، وتقدم الخمور وترقص الفتيات في حلبة الرقص بينما ينظر الشبان لاختيار الفتاة التي تبدو الأكثر جاذبية وإثارة لهم.

عندما بلغت بداية العشرينات مللت أنا وصديقاتي تلك الأماكن وأسميناها بسوق الماشية.

وبالرغم من أنني وكمراهقة كنت أجد هذا اللهو مثيراً، إلا أنها لعبة خطيرة خاصة للفتيات الصغيرات. ففي رحلة البحث عن الشريك المناسب تكون

بعض الفتيات محظوظات جداً في العثور عليه سريعاً ولكنهن أقلية. أما الكثيرات فعليهن تقبيل الكثير من الضفادع قبل العثور على الأمير كما تقول الأسطورة. وقصة تقبيل الضفادع هذه هي التي تقود إلى المشاكل. إن عدم رغبة الشبان وكذلك الشابات في الزواج المبكر تقودهم للتنقل من علاقة إلى أخرى مع الكثير من الضغوط العاطفية على الطرفين.

والضغوط العاطفية، رُبما، هي آخر ما يؤرقهم، إذ ربما تُترك بعض الشابات في حالة حمل غير مرغوب فيه وأب هارب بقدر المستطاع في الاتجاه الآخر. عرفت بعض الحالات التي أراد فيها الصديق أن يتزوج من صديقته لتربية الطفل، لكن الأم ترفض وتتجه مباشرة للإجهاض.

عندما كنت أَعمل بالتمريض، عملت بعنبر أمراض النساء والتوليد حيث تجرى عمليات الإجهاض. في الغالب إن النسبة الكبيرة من الشابات اللاتي يبحثن عن الإجهاض صغيرات وغير متزوجات.

بالرغم من أن ممارسة الجنس لفتاة أقل من السادسة عشر من عمرها غير قانوني في انجلترا، إلا أن بعض الفتيات يكبرن سريعاً رغم صغر سنهن، وينخرطن في دوامة البحث عن شريك والتي تشبه لعبة الروليت الروسية. هذا الأمر قاد إلى ظاهرة حمل فتيات المدارس والمراهقات. شاهدت وأنا ممرضة أيضاً فتيات في عمر الرابعة عشر جئن للإجهاض.

ولا ينبغي التقليل من أثر الضغوط العاطفية. فعندما كنت أسكن في سكن الممرضات وأنا طالبة تمريض مع عشرة من الممرضات. أثناء فترة وجودي (وهي سنوات قليلة) تناولت ثلاثة من هؤلاء الممرضات، وهن صديقاتي، جرعات زائدة من المهدئات نتيجة للإحباط الذي شعرن به لانهيار علاقاتهن العاطفية. ومن الأفضل أن أروي لكم قصة واحدة من هؤلاء الممرضات والتي تدعى كارين، لتدركوا مدى ما تتحمله الفتيات في مثل هذه الحالات.

قصة كارين

كانت كارين تسكن في جزء آخر من سكن الممرضات، إلا إنني لم أكُن أعرفها، ولكني سمعت عنها. فقد كان لديها سمعة سيئة بأنها منحلة أخلاقياً. وقد تقرر صيانة جناح الممرضات الذي أسكن فيه لذلك انتقلنا جميعاً إلى غرفة أخرى وهكذا وجدت نفسي أسكن في الغرفة المجاورة لكارين. أحسست بشيء من القلق لهذا، لكن بمجرد وصولي جاءت إلى غرفتي للترحيب بي. ودعتني إلى غرفتها، والتي لاحظت أنها مرتبة ودافئة ومريحة. كانت كارين مرحة ودودة وتتسم ببراءة طفولية، صفات جعلتني أطمئن إليها واستغربت لماذا يساء بها الظن إلى هذا الحد؟

بدأت أعرف كارين معرفة جيدة، فهي بطبعها كريمة وتثق بالآخرين، ولا ترى أي عيب في أي إنسان. كما أنها أليفة ومرحة وطيبة أكثر مما ينبغي ورقيقة جداً. تذهب كارين إلى الكنيسة كل أحد، وهو شيء لم أعهده في أصدقائي الذين أعرفهم، مما حببها إليَّ أكثر، خاصة عندما علمت أنها تحاول إخفاء ذلك.

بدأت أرى كيف اكتسبت كارين سمعتها السيئة، فهي بطبعها رومانسية إلى حد بعيد وعندما تلتقي بشاب تقع في حبه في الحال وتظل مخلصة له. ولسوء الحظ فإن الشبان لا يبادلونها نفس المشاعر وذلك لأنهم لا يسعون إلى علاقة دائمة. وعليه كان الواحد منهم يتركها متى شاء، وبالرغم من ذلك لا تظهر كارين ألمها بل تظل دائماً مرحة ومتفائلة.

وفي يوم من الأيام قابلت كارين شاباً حسبت وبقناعة أنه يختلف عن كل الآخرين، وكانت تتحدث عنه باستمرار. كانت تنفق مرتبها في شراء الهدايا القيمة له، أصبحت مسلوبة الإرادة تماماً حياله. ولكن جميعنا كنا نرى أنه لا يختلف عن الآخرين وإنها سوف تؤذى مرة أخرى. كان الجميع يرى ذلك إلا كارين.

وفعلاً تركها. واختفت كارين لمدة ثلاثة أيام وظننت أنها ذهبت إلى أهلها. في اليوم الثالث ظهرت كارين من حجرتها وهي تبدو شاحبة ومنهكة. دعوتها إلى حجرتي وسألتها عن الأمر. بعد جلوسها أخبرتني أنها أخذت جرعة زائدة من الحبوب المنومة وأنها استيقظت لتوها أي بعد يومين. لقد صدمت وسألتها لماذا؟ بانفعال أخبرتني كم هي مجروحة ومهانة، وإنها لن تتحمل ذلك بعد الآن، فقد ظل هذا الموقف يتكرر مرات ومرات. لم يحبها واحد منهم قط، إنهم استغلوها فقط وهي تعرف تماماً ماذا يقول الناس عنها.

إن مشكلة كارين تكمن في كونها سهلة جداً وتحسن الظن بالآخرين، وفي مجتمع مثل مجتمعنا تؤكل وهي حية. هل هي بغي؟ أم ضحية لقسوة نظامنا هذا.

على كلٍ كان لقصة كارين نهاية سعيدة. فأخيراً تزوجت من طيار حربي أمريكي وذهبت معه إلى أمريكا. لقد أحسست بالراحة لأجلها لأنها أنقذت في نهاية الأمر ووجدت من يرعاها.

إن قصة كارين ليست قصة نشاز؛ فلا أحد يكترث للحزن الذي يشعر به أي من الطرفين عندما تنهار العلاقات العاطفية بينهما. فالأمر يعتبر كجزء من حياة صغار الشباب. والنهاية السعيدة لقصة كارين لا تحدث لكل شخص. فعندما كنت أعمل في وحدة الطب النفسي أشرفت على عدد من الشابات اللاتي كن يعالجن من الانهيار العصبي نتيجة لنفس الأسباب.

في بعض الأحيان يؤدي تراكم الجراح إلى تعنت مواقف النساء تجاه الرجال والرجال تجاه النساء. فقد بدأت بعض النساء باستغلال الرجال ثم نبذهم كما كان يفعل بهن الرجال. التقيت ببعض النساء اللاتي أصبحن سحاقيات لأنهن كرهن الرجال نتيجة للتجارب السيئة مع الرجال. لدي جارة سحاقية ومعها ابنتها وعمرها ست سنوات وتعيش مع امرأة أخرى. قالت إنها أصبحت سحاقية لأن زوجها كان يعاملها بقسوة ويضربها في بطنها وهي حامل بابنتها في شهرها

السابع مما أدى إلى انفجار في الرحم وولادة طارئة ومن حسن الحظ أن ابنتها بقيت على قيد الحياة وإنها لن ترزق بأطفال آخرين.

ولمعظم النساء – لحسن الحظ - قدرة لا تصدق على الاحتمال.مهما تعرضن للانكسار يرتددن مرة أخرى مثل كرة المطاط متفائلات بأن المرة القادمة ستكون مختلفة. وأخيراً فإن معظمهن يتزوج ويستقر، أما الكثيرات منهن فيصبحن مجرد ضحايا. كما أن القصة لا تنتهي لكثيرات بالزواج، حيث ترتفع نسبة الطلاق ويجدن أنفسهن مرة أخرى في نفس الدوامة القديمة.

بالطبع ينال الرجال أيضاً نصيبهم من الصدمة العاطفية غالباً على أيدي نساء يردن الانتقام رداً لما تعرضن له في السابق.

لقد حدثوني عندما كنت مراهقة أن ظاهرة اتخاذ الشابات عدداً من الأصدقاء والشبان عدداً من الصديقات هو جزء من فترة الشباب والنمو، لكن ما ثمن ذلك؟ إن وسائل الإعلام لها دور في هذا. فالأفلام، والروايات والتلفاز كلها تدور حول فكرة شابة التقت شاباً فأحبته وتزوجته وعاشا في حب وسعادة. لكن في الواقع فالأمر ليس بهذا الشكل دائماً..

التقسيم الطبقي

تعتبر أسرتي من الطبقة العمالية وترعرعت في حي من أحياء المجلس المحلي لمنطقتنا. والمساكن التابعة للمجالس تعتبر عادة مناطق غير آمنة. إلا أن منطقتنا عموماً ليست قاسية بالرغم من وجود بعض العناصر الإجرامية العنيفة خاصة وسط الشبان. لم أكن أعي حقيقة الفوارق الطبقية حتى بلغت الحادية عشر وتأهلت للذهاب إلى المدرسة الوسطى. كان التعليم مجانياً وإلزامياً في المملكة المتحدة لكل الأطفال بين سن الخامسة إلى السادسة عشر. وهذا شيء رائع، لكن كثيراً من الناس يعتبره حقاً من حقوقهم ولا يقدرون ذلك. أما الأسر فتحمل رؤى متباينة تجاه العملية التعليمية. فبعض الأسر تشجع أبناءها وبعضها لا يهتم، بينما الذين يهتمون أحياناً قد يكون أطفالهم لا يهتمون بالتعليم.

لقد أحببت المدرسة وكنت محظوظة لأن والدي كان يشجعني ويحثني على العمل ويهتم بتقدمي. لقد كان مصدر إلهام لي.

في تلك الأيام كان يقول "هناك كثير من الفرص المتاحة للشباب لم تتح لنا أنا وأمك أبداً".

ويقول "إنه لا بد من حصولك على مؤهلات وهي جواز مرورك للمستقبل. هؤلاء الأولاد الذين يعبثون في المدرسة يظنون أنهم أذكياء. انتظري حتى يتركون المدرسة ويحصلون على عمل. سينتهي بهم المطاف في كنس الشوارع أو العمل في مصنع، بينما تستطيعين أنتِ الحصول على ما تريدين، سيكون العالم عندك كصدفة مليئة باللؤلؤ".

كانت المدرسة الوسطى هي أعلى مستوى للمدارس الحكومية المتاحة؛ ولكي تدخلها عليك اجتياز أحد عشر امتحاناً أو أكثر. ولقد ألغتها الحكومة العمالية تدريجياً في السبعينيات. إذ اعتبرت الحكومة تقسيم الأطفال إلى أذكياء وغير أذكياء أمراً غير عادل. كما أن الذين يصنفون بأنهم غير أذكياء في تلك السن الغضة سن الحادية عشر قد يشعرون بالفشل مما يؤثر فيهم بقية حياتهم.

نجح عشرة أطفال فقط في الامتحان لدخول المدرسة المتوسطة من بين مائة في السنة التي امتحنت فيها ودخل خمسة فقط منهم المدرسة فعلياً. كانت صديقتي الحميمة من بين الذين رفضوا الدخول إلى المدرسة. سألتها لماذا؟ أجابت إن المدرسة الوسطى للمتكبرين وأنها لا تريد أن تفقد كل أصدقائها بالذهاب إلى هناك. فأنها المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.

كان أبي فخوراً جداً لأنني نجحت في الدخول إلى المدرسة. وبالرغم من ضيق الحال استطاع تدبر الأمر وإيجاد المال ليشتري لي الزي والأدوات المدرسية التي احتاجها. كان الأمر مكلفاً جداً له.

وعلى كلٍ عند دخولي المدرسة اصطدمت بواقع التمييز الطبقي. نبذني كل الأولاد حينها، حتى صديقتي الحميمة ابتعدت عني. كنت أقذف بالشتائم في الشارع، بينما كان معظم الأولاد في المدرسة والذين جاءوا من الطبقة العليا المتوسطة والطبقة المتوسطة عزلوني لأنني جئت من أطراف المدينة وأتحدث بلهجة الطبقة العمالية. لكن استطعت الاستقرار تدريجياً وتكوين أصدقاء في المدرسة.

أعطاني أحد الأساتذة دروس إلقاء لتحسين نطقي، مما أكسبني قبولاً أكثر في المدرسة، وسبب لي كثيراً من المشاكل في البيت. حتى والدي غضب لأن المدرسة لم تعتبر أن لهجتي حسنة بصورة كافية، وأعطت لهجتي الجديدة ذريعة كافية لأصدقائي في الحي لمهاجمتي. نُظر إليَّ كأنني أنسلخ من طبقتي، وأنني المتكبرة التي تنظر إلى طبقتها بازدراء. كانت فترة عصيبة شعرت خلالها بالعزلة. بدا لي وكأنني لا أنسجم في أي مكان. وبدأت أشعر برغبة في ذلك العمر في ترك مدينتي. كانت كل جهودي منصبة على الحصول على المؤهلات الكافية للالتحاق بالجامعة أو الحصول على وظيفة بعيداً عن مدينتي.

وفي ١٩٧٢م عندما كنت في السنة الثالثة تحولت مدرستي إلى مدرسة شاملة تبعاً للقوانين الجديدة للتعليم التي أصدرها حزب العمال. وكان ذلك يعني دمج المدرسة المتوسطة مع المدرسة الثانوية المحلية. كانت مدرستي قبل الدمج صغيرة

إلى حد ما، بها ٦٥٠ تلميذاً فقط. كان المستوى التعليمي عالياً ويغلب على المدرسة الجو التعليمي.

كان سلوك الأولاد عموماً حسناً ويوقرون أساتذتهم. وعند تحولها لمدرسة شاملة، كأن الفوضى أصبحت هي المسيطرة. فقد زاد حجم المدرسة فجأة إلى مابين٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ تلميذ، مما جعلنا أكبر مدرسة شاملة في البلاد. كان معظم تلاميذ المدرسة الثانوية، خاصة الأولاد، فوضويون، قليلو الاهتمام بالمدرسة، لا يبدون أي احترام للمعلمين ويتجولون في مجموعات ويعتدون على أولاد المدرسة المتوسطة السابقة. في هذه الأثناء أحرق السياج المحيط بالمدرسة، وكسر تلميذ كل زجاج قاعة المدرسة بتصويب بندقية هوائية تجاهها، كما كسرت أنف أحد المعلمين وأصبح الشجار والسرقة شيئاً عادياً ومألوفاً.

ساد المدرسة جو عام من الرعب. كتلميذة من المدرسة المتوسطة السابقة كان يتم الاعتداء عليَّ. ودائماً ما تسرق نقودي. انخفض المستوى التعليمي العام، كان الأمر يبدو وكأنه كابوس مزعج، والمدرسة التي أحببتها، أصبحت شيئاً مفزعاً.

وساد وسط مجموعة كبيرة من الشباب نوع من اللامبالاة بالتعليم، وكان يبدو أن الولد الأكثر تمرداً وأسوأ سلوكاً هو الذي يكسب شعبية كبيرة وسط أقرانه. كثير من هؤلاء شكلوا المجموعات المشاغبة التي تحضر مباريات كرة القدم. كان أخي الأكبر واحداً من هؤلاء الشباب، دارت بينه وبين أبي الكثير من المواجهات لكبح سلوكه، لكن كان أخي مشهوراً جداً وسط أصدقائه مما شجعه أكثر على سلوكه الفوضوي.

كانت هذه هي الفترة التي ظهرت فيها موضة الرؤوس الحليقة. حلق المراهقون شعرهم، ولبسوا القمصان المرقعة، وبناطلين الجينز المحزقة والغوائش وانتعلوا الأحذية الفخمة (البوت) "أحذية د. مارتن". وعرفوا حينها بأولاد الأحذية العالية أو رعاة البقر". كانوا يتباهون بكراهية السود وخاصة الباكستانيين. تورط أخي في

مثل هذه الأعمال. لم يكن هناك باكستانيون في قوسبورت، إلا أن أخي اخبرني عن رحلاته إلى لندن لمشاهدة مباريات كرة القدم وبعدها يجوب هو وأصدقاؤه الشوارع بحثاً عن الباكستانيين ليعتدوا عليهم. ويسرني أن أقول أن أخي كبر وتخطى هذه المرحلة السيئة، وربما يكون الآن مرعوب فعلاً من طريقة سلوكه تلك.

انتهت موضة الرؤوس الحليقة لفترة قصيرة، ولكنها عادت للظهور مرة أخرى في الثمانينيات أكثر تنظيماً وغرابة في شكل الحزب الوطني البريطاني. وهي مجموعة من النازيين الجدد اتخذت رودلف هتلر بطلاً، ولها مفاهيم فاشية وعنصرية، نزعة ولسوء الحظ انتشرت عبر أوربا. وقد عرفوا بأن لهم صلات مع عصابة الكوكلس كلان* في أمريكا.

(They are even know to have links with the infamous ku klux Klan in America).

إلى جانب مجموعات الرؤوس الحليقة في السبعينيات ظهر الهيبيز أيضاً. وهؤلاء بعكس مجموعات الرؤوس الحليقة يطلقون شعر رؤوسهم طويلاً، ويدعون للمحبة وإيقاف الحروب. واشتهروا بتعاطي "المخدرات". وتعاطي المخدرات كان منتشراً في ذلك الوقت، خاصة في الجامعات.

كانت مشاهد الطلبة الهيبيز متعاطيي المخدرات والخمور في التلفاز مألوفة. بدأت أمي تقلق من احتمال دخولي الجامعة. قالت: "لا أريدك أن تنتهي كهيبية مدمنة".

وعليه عندما حان وقت اختيار التخصص الذي يحدد وظيفتي المستقبلية قررت أن لا أدخل الجامعة لإرضاء والدتي، لكن خيبت أمل والدي واخترت التمريض كمهنة للمستقبل. الكل يحب المرضات، لن يهاجمني أحد كممرضة وسيصبح بإمكاني الذهاب بعيداً عن قوسبورت.وعليه تركت أسرتي في عمر الثامنة عشر وذهبت إلى لندن لأكون ممرضة.

---

* منظمة أمريكية عنصرية تكونت ٦٥- ١٨٦٦ معادية للسامية تدعو لسيادة البيض، ارتكبت كثيراً من جرائم العنف والقتل ضد السود والبيض الذين يساعدونهم والشواذ والمهاجرين.

طالبة تمريض

كان الذهاب إلى لندن كالذهاب إلى بلد آخر. إنها مدينة عالمية كبيرة مزدحمة، مثيرة ورغم ذلك مخيفة. بمعظم شوارعها الضيقة مليئة بالسياح الأجانب وبازدحام حركة المرور التي ينتج عنها تلوث للجو كثيف. وبالتالي تختلف عن قوسبورت بهوائها الريفي، وجوها الهادئ وحركة الحياة البطيئة.

لم التق بأي أجنبي في قوسبورت، ولم ألتق بأناس من دول وثقافات مختلفة ولذا وجدت لندن مثيرة.

في بداية الأمر أحسست بالشوق لأسرتي؛ افتقدتهم، خاصة والدي. إنني الآن أتمتع بحرية غير محدودة للخروج متى أشاء والعودة في أي وقت من الليل. لكن بطريقة ما افتقدت والدتي التي تنتظر دائماً عودتي للمنزل لتوبخني على تأخري أو تستجوبني أين كنت ومع مَنْ؟. كان هناك من يهتم بي، الآن هذه الأشياء لا تقلقني، لكن في مدينة الغرباء هذه لا أحد يهتم بأحد، أصبحت مسؤولة عن نفسي، وأن الأمر متروك لي لتشكيل قواعدي وحدودي، أنا وحيدة وحرة، لكنني شعرت كطفلة صغيرة خائفة تحتاج لأمها.

عقدت صداقات سريعاً؛ هناك أربع وعشرون ممرضة في فصلي، معظمهن مثلي بعيدات عن أسرهن للمرة الأولى. نشأت بيننا صداقة حميمة قوية لأنه وفي غياب أسرنا أصبحنا كالأسرة لبعضنا البعض.

في يومي الأول في مدرسة التمريض، ألقى مدير تعليم التمريض كلمة استقبال وبدأها بافتتاحية لن أنساها أبداً قال "إن جسم الإنسان آلة مدهشة دقيقة التنسيق، كلما تعرفت أكثر عن كيفية عمل هذا المخلوق المدهش كلما ازددت إيمانا بالله".

لكي أصبح ممرضة قانونية احتاج لثلاث سنوات من التدريب في كل حقول الطب والجراحة. الطب النفسي، علم التوليد ورعاية المجتمع. كنا نتناوب بين العمل في العنابر والدراسة في مدرسة التمريض. إنه عمل شاق، يتطلب جهداً، وأحياناً يستنزفك عاطفياً، لكنه ممتع دائماً. يكسب الإنسان معرفة متميزة في

طبيعة المجتمع، إذ غالباً ما يأتي الناس إلى المستشفى كنتيجة لحياتهم التي يحيونها أو كضحايا لنوعية المجتمع الذي نعيش فيه.

في عنبر طب الشيخوخة هناك حالات لكبار السن الذين جاءوا للمستشفى لأن أسرهم لا تستطيع رعايتهم أو لا تريد أن ترعاهم. إنهم يظلون هناك حتى إيجاد مكان لهم في بيت كبار السن.

في عنبر العظام هناك كثير من حالات المرضى بأطراف مكسورة وآخرون في عنبر الجراحة لديهم جروح خطيرة في الرأس والوجه من حوادث حركة المرور نتيجة للقيادة بعد تناول الكحول.

وفي عنبر الباطنية فإنك تجد مرضى يتعافون بعد أخذهم جرعات زائدة من المهدئات بقصد الانتحار. وتجد أطفال تعرضوا للمعاملة السيئة في عنبر طب الأطفال.

ستجد حالات الإجهاض في عنبر أمراض النساء وأرواحاً حزينة وحيدة محطمة نتيجة لضغوط المجتمع في وحدة الطب النفسي.

وجدت نفسي أكبر بسرعة شديدة. في سنة واحدة شعرت بأنني ازددت عشر سنوات. تفتحت عيناي على كثير من حقائق الحياة وواقع مروع للمجتمع الذي أعيش فيه، إنه واقع محبط.

من ناحية أخرى أنا كممرضة، لقنت أن لا أتأثر عاطفياً وأن أكون بمعزل عن ذلك. الإنسان لا يمكن أن يؤدي عمله بكفاءة إذا أصبح ينفجر في البكاء أو يحبط من الذي يراه. لكنه حدث لي كما يحدث لكل واحد منا.

يمكن أن أكتب مجلدات من الأمثلة لمختلف الحالات المؤلمة، هنا سوف أذكر بعضاً منها.

بينما كنت أعمل بعنبر الباطنية أشرفت على سيدة مسنة تعاني من مرض المِلانين الخبيث، وهو سرطان الجلد. تملأ سريرها كل صباح قشور تسقط من جسدها الضئيل الهش، وتتركها قطعة حمراء نازفة. وفي أحد الأيام بينما كنت أحضر لها غيارها اليومي سألتها لتعرفني عن نفسها، أعرف أن المسنين يحبون

الحديث عن ذكرياتهم. حدثتني أن زوجها قتل في الحرب العالمية الثانية، تاركاً إياها أرملة صغيرة مع ستة أطفال لتربيهم وحدها. لم يكن هناك نظام رعاية حكومية في ذلك الوقت، كانت تقوم بأي عمل لكي تطعم وتكسو وتعلم أطفالها. قالت إنها غسلت الأرضيات، ونظفت المنازل. وقامت بأي عمل كانت تجده. الآن كل أطفالها كبروا وكلٌ مع أسرته. دهشت، لأنها ليس لها كثير من الزوار. سألتها إن كانوا يزورونها دائماً. بدأت تبكي قليلاً، قالت: " إنني لم أر أي واحد منهم لسنوات، ما زال لديهم حياتهم الخاصة، لماذا يهتمون بامرأة مسنة مثلي؟" أردت أن أصرخ وأقول "لأنك أمهم". لكنني لم أفعل، شعرت بأنني سأبكي من أجلها، لكنني لم أفعل؛ فقصتها لم تكن غير عادية وعلى الإنسان كبت مشاعره في أثناء أداء الخدمة.

لا أريدكم أن تعتقدوا أن هذا شأن كل الأسر، فكثير من الأسر تحب وتهتم بأفرادها المسنين، في أسرتي أحببنا ورعينا أجدادنا من الجانبين الذين عمروا طويلاً وأحيطوا بالحب والرعاية من أسرتي حتى وفاتهم. مع ذلك فالحقيقة الباقية هي أن هنالك كثير من حالات كبار السن أهملهم أحباؤهم وتركوا ليموتوا وحدهم. في الواقع هنالك حالات كثيرة من المسنين وجدوا أمواتاً في بيوتهم بعد عدة أيام أو حتى أسابيع من وفاتهم.

مثلاً هناك سيدة مسنة كانت تربي عدداً كبيراً من القطط توفيت وحيدة. وعندما تم اكتشافها بعد عدة أسابيع، كانت قططها الجائعة قد أكلت نصف جسدها.

عندما كنت أعمل في الحي مع ممرضة المنطقة، حدد لي بعض المرضى لزيارتهم. تقريبا كلهم مسنين ومعظمهم يعيش وحيداً. عادة هناك أشياء قليلة أقوم بها لهم، ولكن كانوا يصرون أن انتظر معهم لتناول فنجان شاي والأنس معهم. بعضهم يقول إن الممرضة هي الشخص الوحيد الذي يرونه كل نهاية أسبوع، ولذلك فمعظم وقتي ينقضي في تناول الشاي والإصغاء إليهم. كنت أقول لنفسي في ذلك الوقت إذا كنت سأنتهي إلى مثل حالهم عندما أكبر، فإنه من الأفضل لي أن أموت صغيرة.

الإجهاض: مأساة الطفولة الصامتة

إن أول صلة لي بموضوع الإجهاض كانت في العام الأخير من أعوام دراسة التمريض. لقد أزعجني بشدة وأثار في نفسي تفكيراً عميقاً، بل كان لاحقاً عاملاً من عوامل اعتناقي الإسلام.

لم تكن لدي رؤية حول الإجهاض قبل ذلك، لم أفكر أبداً في الإجهاض بعمق، على الرغم من أنني كنت أعي الجدل الذي يدور حوله.

في يومي الأول بعنبر أمراض النساء، كانت رئيسة الممرضات في نوبتي في إجازة مرضية، فتحملت أنا المسؤولية في العنبر حيث كنت الأعلى درجة من بعدها. أخبرتني الممرضة المناوبة قبل نهاية نوبتها أن الفتاة في الحجرة (٣) في حالة إسقاط وعليّ فحص مضخة البروستاقلاندين وتنظيم درب الطلق الاصطناعي كل ساعة. وهذا ما فعلت، ودون ارتياب. في اليوم التالي حضرت صباحاً للعنبر وذهبت إلى مجمع القمامة حيث تحفظ النفايات والقصاري. رأيت قصرية مغطاة فظننت أن ممرضات النوبة الليلية نسين تفريغها فذهبت لتفريغها. عندما رفعت الغطاء رأيت فيها جنيناً ميتاً، مكتمل النمو، رغم صغره وإبهامه الصغير في فمه. تجمدت لمدة بدت وكأنها للأبد، حتى جاءت ممرضة أخرى وقالت: "اتركيه هناك، فالطبيب سيفحصه للتأكد أنه خرج كاملاً" سألتها ماذا سيحدث له بعد ذلك؟

قالت: "سوف يحرق في فرن المستشفى مع النفايات وأضافت: "إنها حالة قتل أخرى".

لاحقاً اكتشفت أنه طفل الفتاة التي كنت أنظم لها الدرب والمضخة. ليس هناك كلمات يمكن أن تعبر عن مشاعر الاشمئزاز والندم التي شعرت بها عن دوري في هذه العملية. كانت نقطة سوداء في فترة تدريبي للتمريض. أحسست بأني محبطة ومذنبة لبعض الوقت، ولم يفهم الكثيرون ممن حولي سر انزعاجي لهذا الحد. قالت لي إحدى صديقاتي إن الجنين لا يصبح طفلاً حتى يولد فلماذا

التهويل. وأخبرت ممرضة أخرى، إنني لن أتورط أبداً في مثل هذه الأشياء مرة أخرى. أجابتني بأن أي ممرضة ترفض المساعدة في أي أمر يتعلق بمعالجة أو رعاية مريضة، بما فيه الإجهاض ستطرد من التمريض. أتذكر أن هذا قاد إلى جدال كبير بيننا حيث قلت لها إن دور الأطباء والممرضات هو تعزيز الصحة وإنقاذ الحياة وليس تدميرها. لا بد من القول أن الأغلبية العظمى من الممرضات يكرهن الإجهاض، لكن القليل منهن يرفضن المساعدة فيه وغالباً لأسباب دينية.

في كل أسبوع كان لدينا ما بين ١٠ إلى ١٥ حالة إنهاء حمل. كان يسمح قانونياً بإجراء الإجهاض حتى الأسبوع الثامن والعشرين من الحمل، ثم خفض إلى أربع وعشرين أسبوعاً بعد اكتشافهم أن كثيراً من الأجنة يصبحون أحياء ببلوغ الأسبوع الرابع والعشرين. وأخبرتني ممرضات أخر أن الممرضة المسؤولة في العنبر أوضحت للمستشارين بجلاء أن أي جنين يجهض وهو حي ستعمل كل ما في وسعها لإنقاذه.

في إحدى المرات حدث هذا لجنين وهو في أسبوعه السادس والعشرين، فأسرعت ممرضة العنبر وهي تحمل الجنين الصغير بين ذراعيها إلى وحدة العناية الخاصة بالأطفال، لكنه توفي بعد فترة قصيرة من وصوله للوحدة. قدمت الأم شكوى للمستشفى ضد الممرضة والتي كادت أن تفقد وظيفتها، لمحاولتها إنقاذ حياة جنين! ولم تستطع المستشفى اتخاذ أي إجراء ضد الممرضة بعد أن هددت الممرضات بالقيام بعمل نقابي.

إن عملية الإجهاض تتم عبر السحب والتوسيع والشفط في غرفة العمليات لإنهاء الحمل الأقل من اثني عشر أسبوعاً. فالحمل إما أن يكشط أو يسحب بأنبوب الشفط. أما الأجنة الأكثر من اثني عشر أسبوعاً فتجهض في العنبر عن طريق إدخال البروستاقلاندين بقسطرة في الرحم وتسريب المحلول الوريدي الذي يسبب الطلق الاصطناعي فيحدث المخاض.

ومن حب استطلاعي أردت أن أرى ماذا يفعلون ، لكنني لا أريد أن أشارك أو أساعد في العملية وهذا من حقي. وفي أحد الأيام شاهدت العملية ، سمعت صرخة طفل صغير آتية من الحجرة المجاورة. بدا لي كأن هذا الطفل المجهض يبكي طالباً الرحمة. شعرت بأن أرجلي لا تقوى على حمل جسدي بل أحسست وكأني مريضة وعليه غادرت الغرفة.

وعندما أنهيت مناوبتي رجعت إلى حجرتي وكتبت هذا الشعر تعبيراً عن مشاعري حيال هذه التجربة القاسية.

أحقاً هو النور الذي أشعلوا

ليستبينوا كيف يشرعون في الإعدام الذي أمَّلوا

هاهو ذا الآن يدخلُ

ليتَ شعري فمن يُجيبُ إذا ما نُلقي السؤالا

أحراماً كان ما ارتكبوا أم فعلاً حلالاً

لكنَّ هذا الجُرمَ عندهم يَحِلُّ

ألم يُكتبْ لهم الإقرارُ بالتوقيعْ

فمَن نتَّهمُ إذن بهذا القتلِ الشنيعْ

❖❖❖❖

نهبوا حياته وقد كانَ من الخروج اقترابا

آمناً في رَحِمِهِ ما عرف فيه فضةً ولا ذهباً

فانتزعوا ما يملكُ إزاءَهم دفاعاً ولا هرَبا

❖❖❖❖

ألا فاسمعوا استغاثته تأتي بضعف شديدٍ :

"دعوني أحيا وأُبصرُ سعةَ هذا الوجودِ

وأرى الشمسَ قريباً ضوؤها وهْو يأتي من بعيدٍ

فحقُّ الحياةِ منيحةٌ من الخالقِ المعبودِ

فلا تَرجعونيَ عدماً بعد إذ أشرقت شمسُ وجودي"

❖❖❖❖

وثمةَ صرخةٌ أسمعها من غرفة الجوار تنطلقُ

ما أسعدها من نفسٍ قد أخطأها الموتُ الوبيل

لأي شيء تصرخ أيها الطفلُ الجليل

فقد ملكت في هذه الدنيا حقَّ الحياة الأصيل

فما لهم عليك ، بعد الآنَ من سبيل

❖❖❖❖

قد طاشَ سهمُ الموتِ عنك ، وما كانَ ليطيشا

فقُدِّرَ لك ، كي ترى هذه الدنيا ، أن تعيشا

فعشتَ بهذه الحياةِ تنعُمُ

ولم يطعَم منها ذاك المسكينُ ما أنت تطعَمُ

سمعت كل المناقشات التي دارت حول الإجهاض، لكن من تجاربي أن معظم الحالات كانت لأمهات صغيرات غير متزوجات. هناك أيضاً بعض الأمهات المتزوجات لا يردن مزيداً من الأطفال. التقيت بواحدة أو اثنتين منهن جئن للإجهاض للمرة الثانية أو الثالثة وهن يستخدمنه كشكل من موانع الحمل. لقد مررت بحالة واحدة فقط أجريت فيها عملية إجهاض بسبب الاحتمال الأقوى لتشوه الجنين.

هذه الحالة كانت مأساة عظيمة، فالمرأة المعنية متزوجة منذ ثلاثين عاماً أو أكثر. لكنها لم ترزق بأطفال، وكانت ترغب بشدة في طفل، وعندما توقفت دورتها عند عمر الحادي والخمسين ظنت أنها سن اليأس، ولكن لفرحتها الحقيقية اكتشفت أنها حامل إلا أن زوجها وطبيب الأسرة لم يفرحا بذلك إذ تم تحذيرها من أن طفلها غالباً ما يكون معوقاً جسدياً أو لديه متلازمة داون.

تحت ضغط زوجها والطبيب وافقت على إنهاء حملها، كانت في أسبوعها السادس والعشرين. وفي منتصف عملية الإجهاض غيرت رأيها فأبلغت الطبيب بإيقاف العملية، وهذا ما فعله الطبيب. وللأسف كان ذلك متأخراً جداً وأجهضت جنيناً مكتمل التكوين وإن كان ميتاً. أتذكر بكاؤها، أتذكر صراخها في وجه زوجها وهي تلومه. ولقد علمت بعد فترة أنها أصيبت باكتئاب حاد واحتاجت لمعالجة نفسية.

جال بخاطري آنذاك أن كل هذا سمات وأعراض أمراض لمجتمع أصبحت قيمه وأخلاقه موضع شك، مجتمع يسير بعيداً في طريق الضلال. بالنسبة لي، لا أحد يمكن أن يبرر هذه المحرقة الخفية.

إن الحل المألوف الذي قدم لهذه المشكلة هو زيادة التوعية بوسائل منع الحمل، لكن الذي كان يبدو غريباً أنه وبالرغم من سهولة الحصول على هذه الوسائل، والتقدم الكبير في الثقافة الجنسية، إلا أن نسبة الإجهاض أخذت في الازدياد.

في تقديري إن التوسع في إتاحة موانع الحمل للمتزوجين وغير المتزوجين ساعد حقاً على تفاقم المشكلة. في الماضي، عندما كان الوازع الأخلاقي ضعيفاً بل معدوماً، كان الخوف من الحمل غالباً كافياً ليحول دون العلاقات الجنسية قبل الزواج. لكن مع الانتشار الواسع لموانع الحمل، اختفى هذا الخوف. إذا نظرنا مثلاً للستينات عندما ظهرت حبوب منع الحمل، كان ظهورها بداية لما أصبح يعرف بالمجتمع الإباحي. لقد كانت العلاقات الجنسية قبل الزواج موجودة، ولكنها لم تكن نمطاً اجتماعياً. أما في عقد الستينات وما بعدها أصبحت هذه العلاقات شائعةً لدرجة أنها أصبحت نمطاً اجتماعياً وظلت كذلك لعدة سنوات. لقد غير هذا الوضع الوازع المجتمعي تجاه مثل هذا السلوك وسيطرت روح القبول بالأمر الواقع. لم يحل استخدام الموانع المشكلة نهائياً إذ قد لا يتم استعمالها دائماً خاصة عندما يكون أحد الشريكين أو كلاهما قد تناول

الكحول، أو أنهما التقيا لتوهما في نادٍ ليلي، ولم ينتبها لموضوع استخدام الموانع. كما أن بعض الفتيات يتعمدن عدم استخدام الموانع رغبة منهن في الحمل لأسباب مختلفة من أهم هذه الأسباب التسهيلات التي تمنحها الحكومة للأمهات غير المتزوجات. فهناك مثلاً عقدة الذنب للمعاملة القاسية التي لاقتها الأمهات غير المتزوجات في الماضي. ونتيجة لذلك اتخذت عدة تدابير حكومية لمساعدتهن. في السكن الحكومي أو مساكن المجالس التي أنشئت لمساعدة الذين لا يستطيعون شراء منازل. وقد يعطى بعض الأشخاص الأولوية في الحصول على منزل. قائمة انتظار الإسكان عادة طويلة وربما تأخذ منك سنوات للحصول على منزل. في مثل هذا الوضع تعتبر حالة الأمهات غير المتزوجات حالة طارئة وتوزع لهن المنازل سريعاً. ودائماً يتم إسكانهن فوراً، وبتجاوز صف المتزوجين الذين كانوا ينتظرون لسنوات. ويتاح أيضا للأمهات غير المتزوجات الحصول على إعانات اجتماعية مختلفة، حيث لا يتوقع لهن أن يعملن وليس لهن عائل. إن آخر الإحصائيات تشير إلى أن ٢٣٪ من الأطفال الذين يولدون اليوم هم خارج إطار الزواج – أي غير شرعيين - . ولذلك هناك إحساس عام بأن الشابات يتعمدن وضع أنفسهن في هذه الحالة – أي حالة تعمد الحمل غير الشرعي - من أجل الحصول على شقة أو منزل بالإضافة للإعانات الاجتماعية. لقد خلق هذا الأمر بالطبع كثيراً من الاستياء بين المواطنين بسبب ارتفاع التكلفة لدافع الضرائب والضغط على الاقتصاد والذي أصبح واضحاً جداً.

وقد أصبح من الشائع عموماً - بالرغم من صعوبة الاستدلال على ذلك – أن الكثير من الفتيات يتعمدن الحمل لكي يحتفظن بأصدقائهن. فالرجال عادة لا يستعجلون على الزواج والتخلي عن حريتهم. وترى بعض الفتيات أن الحمل هو الطريقة الوحيدة لإجبار الرجال على زواجهن، وبما أن وجود الأمهات غير المتزوجات أصبح شيئاً مألوفاً والشعور بالعار الذي كان يحيط بالزنا قد انتفى كلياً، فإن الرجال غالباً لا يشعرون بأي التزام أخلاقي للزواج بهن وربما

يتركوهن هكذا. كما أن العيش معاً بلا زواج أصبح ظاهرة شائعة لا يستغربها أحد. فقد عاش أخي الأكبر مع صديقته اثني عشر عاماً ورزقا بطفلين قبل أن يتزوجا. أما أخي الأصغر فهو الآن يعيش مع صديقته حوالي خمس سنوات، والآن وأنا أكتب قصتي هذه فهي في انتظار أن تضع طفلها الأول. أمي تريده أن يتزوجها لكن أخي قال إنه لا يريد أن يتزوج فقط من أجل طفل وإن وثيقة الزواج مجرد ورقة لا تحمل أي معنىً بالنسبة له.

لم يعد الزواج يحمل نفس المعنى الذي كان يحمله في الماضي، بالرغم من أن الناس ما يزالون يتزوجون بنفس الأعداد كما كانوا يفعلون دائماً. ربما يشعر الناس في دخيلة أنفسهم أن الالتزام الحقيقي الوحيد الذي يعطيهم الإحساس بالأمان هو الزواج، والذي لا يمكن أن يشعر به الإنسان في حالة العيش معاً بدون زواج. وعليه فإن عدم الالتزام العام - أي العيش معاً بلا زواج - يجعل مثل هذه الترتيبات غير آمنة وعرضة للانهيار وبالطبع فإن الأطفال هم الضحايا الأكثر معاناة.

خلاصة القول إنني أشعر شخصياً، أنه كلما أصبحت العلاقات الجنسية قبل الزواج شائعة، كلما ازدادت نسبة الحمل غير المرغوب فيه، ومن ثم سترتفع نسبة الإجهاض والأمهات غير المتزوجات بالرغم من سهولة الحصول على الموانع، لا، بل على الأرجح بسببها، (أي أن وفرتها تشجع على العلاقات خارج الزواج ويؤدي نسيان استخدامها للحمل).

تبادلت بعض الآراء حول مشاعري تلك تجاه الإجهاض مع ممرضة العنبر في ذلك الوقت. فقالت إنها أيضاً تكره الإجهاض، لكنها ما زالت تتذكر الأيام الماضية قبل أن يصبح الإجهاض مباحاً قانونياً، وكيف أنها رأت حالات كثيرة مأسوية لفتيات صغيرات عانين من مضاعفات خطيرة بسبب الإجهاض على أيدي ممارسي عمليات الإجهاض غير القانونيين الذين يجرون هذه العمليات في الخفاء وأن كثيراً منهن توفى.

فكرت ملياً فيما تبدو وكأنها معضلة أخلاقية، لكن شعرت حينئذٍ أن الطريقة الوحيدة لوضع حد لهذا بأن يعمل الناس كأفراد على تغيير سلوكهم وعلى تغيير نمط التفكير العام للمجتمع، لكن كيف؟ لقد قطع المجتمع شوطاً بعيداً في طريق الحرية الجنسية، كيف يمكنك تغيير حركة التيار وهل أنا واقعية؟

هل علينا فقط تقبل الأمر الواقع كما هو وأن نفقد أي أمل في إمكانية تغيير المجتمع؟ هل نترك الناس يفعلون ما يريدون ثم نقوم بمعالجة العواقب كلما ظهرت، واضعين بذلك معاناة مضاعفة على الأسرة والاقتصاد؟ أم يجب علينا أن نكون حازمين ونتصدى للأسباب الجذرية للمشكلة؟ لم تكن لدي أجوبة آنذاك، إلى أن اكتشفت الإسلام وحينها وجدت كل الأجوبة لأسئلتي.

زيارتي إلى سوريا

يدرب المستشفى الذي أتدرب فيه طلبة الطب حيث يكون من بينهم طلبة من كل أنحاء العالم. ويسكن معظم هؤلاء في بيت الممرضات، لذلك نعرف بعضنا البعض جيداً.

من بين الأصدقاء الذين تعرفت عليهم عدد من الطلبة السوريين ولم ألاحظ ما يميزهم عن الآخرين؛ فهم يلبسون مثل ما نلبس، يذهبون لنفس الحفلات وهكذا. الشيء الوحيد الذي لاحظته عليهم أنهم لا يشربون الكحول ولا يأكلون لحم الخنزير، وعندما سألتهم لماذا قالوا إنهم مسلمون ولم أفكر في هذا الأمر كثيراً.

بعد فترة من الزمن رجعوا إلى سوريا. وقبل مغادرتهم دعوني لزيارتهم في سوريا، وظننت أنها مجرد لفتة كريمة منهم ولم آخذ هذه الدعوة مأخذ الجد. بقينا على اتصال عن طريق الرسائل وكانوا دائماً يكررون دعوتهم لي لزيارتهم. وأخيراً بدأت التفكير جدياً في زيارتهم، إذ لم أذهب للخارج من قبل، ولم أركب الطائرة قط. أثارتني هذه الفكرة، لكن انتظر لحظة أين تقع سوريا؟.

إنني أجهل تماماً ما يختص بالشرق الأوسط، ولم أعر أي اهتمام للشؤون الدولية أو السياسية ولا أعرف حتى ولو القليل عن الإسلام. ولم أكن وحدي في ذلك، بل أن معظم الإنجليز كذلك. وخلال إحدى زياراتي لأسرتي اطلعت على أطلس العالم في مكتبة والدي لأرى أين تقع سوريا! عارض أبي تماماً فكرة سفري لسوريا وحدي، ولكن بما أني كنت في التاسعة عشر من عمري ليس أمامه ما يفعله قانونياً لمنعي وبما أنني كنت ذات طبع عنيد بدأت في وضع خططي للسفر. قبل مغادرتي حزمت حقيبتي ووضعت فيها ملابس السباحة "البكينى" وكريم اسمرار البشرة وكل البلوزات قصيرة الأكمام التي وجدتها. فقد قدرت أن سوريا بلد حار، ويمكنني الاستمتاع بحمام شمس لطيف هناك.

سافرت إلى دمشق، (سوريا) في ١٩٧٨م وعندما خطوت خارج الطائرة شعرت وكأنني دخلت عالماً آخر. في الطريق لاحظت أن هناك خليطاً محيراً من الناس، بعضهم يرتدي الملابس الغربية بينما يرتدي الآخرون الملابس العربية التقليدية المزركشة. أين ما ذهبت ترى نساء يلبسن غطاء الرأس وكثيرات يغطين أجسادهن من الرأس إلى أخمص القدم حتى أن وجوههن لا تظهر. شعرت في ذلك الوقت بأنني خائفة قليلاً من هؤلاء النساء المحجبات. كان منظرهن غريباً أول الأمر. ولجهلي ظننت أن هؤلاء النساء المحجبات لا بد أن يكن متخلفات، غير متعلمات، ومضطهدات، بينما النساء بالملابس الغربية لا بد أن يكن مستنيرات، متحررات ومتعلمات. سمعت ولا أدري من أين بأن الرجال العرب يسيئون للنساء، ويعاملونهن كمجرد قطيع يباع ويشترى مقابل الإبل، وأنهم يتزوجون بعدد كبير من النساء. واكتشفت أن هذا غير صحيح. ففي سوريا عوملت كامرأة باحترام شديد، وحقيقةً لم التق بأي رجل معه أكثر من زوجة واحدة، بالرغم من أنني أخبرت بأن الرجل المسلم يمكن أن تكون له أربع زوجات. النساء اللاتي قابلنني، إذا كن يتعرضن للظلم، لا يبدو عليهن ذلك، بل يبدو أنهن أكثر سعادة ورضا. معظم النساء اللاتي قابلتهن يدرسن بالجامعة وأسرنني لأنهن أكثر ثقة وانضباطاً.

في البدء سكنت مع إحدى الأسرة لبضعة أيام، رجل وزوجته وستة أطفال. الزوجة كانت امرأة رائعة، علمت بأنها نالت درجة الماجستير في الفيزياء. فهي ذكية، نشطة، وفوق كل ذلك عطوفة ومضيافة. اسمها رجاء. منزلها نظيف وأطفالها مؤدبون مما يدل على أنهم نشئوا تنشئة جيدة. أعدت كمية كبيرة من الطعام على شرف وجودي معهم وجلسنا جميعاً نتناول الطعام، لاحظت أنها لم تأكل شيئاً. عند سؤالي لها، قالت: إنها صائمة، ولا يمكنها أكل شيء حتى الغروب، تأثرت كثيراً وفكرت أنها وقفت في المطبخ طوال اليوم لتطبخ هذه الوجبة بينما هي نفسها صائمة. أعجبت برجاء كثيراً، ووجدتني انجذب إليها

بطريقة لا يمكنني تفسيرها. وفي يومي الأخير معهم، طلبت مني الذهاب معها إلى السوق، انتظرتها لتستعد، وبعد قليل جاءت وهي مغطاة من رأسها إلى قدميها في عباءة سوداء وتغطي وجهها أيضاً. لقد دهشت، وشعرت بالخجل من افتراضاتي السابقة، ولكن في ذات الوقت ظللت حائرة لماذا تلبس امرأة ذكية وجميلة كرجاء مثل هذا الزي؟ لا بد أن هنالك الكثير عن هذا الدين لا نعلمه ولا بد أن هناك أشياء كثيرة لم أفهمها عنه.

للمرة الأولى في حياتي أسمع بقوانين صارمة عن كيف يجب أن تلبس وما لا تلبس، ليس فيما يختص بالموضة، لكن ماهو القدر الذي يجب أن نغطي من الجسد. في انجلترا لم يخطر ببالي أبداً أن تعرية ذراعي وشعري أو لبس الملابس الضيقة يمكن أن يكون خطأً. فبينما كنت أفرغ حقيبتي من ملابسي الضيقة والبكيني علقت صديقتي السورية - وهي ترى هذه الملابس - إنه لا يمكنني ارتداء هذه الأشياء هنا. سألت لماذا، أجابت أنها ليست انجلترا وأن الناس هنا محافظون جداً وعليَّ أن أحاول ارتداء فستان أو اسكيرت والتأكد من تغطية ذراعيَّ. في البداية أحسست بالإهانة وبدا لي وكأن طريقتي في اللبس قد وصفت بأنها مشينة، ولكن أذعنت لنصيحتها حيث إن على المرء احترام العادات الاجتماعية للبلد الذي يوجد فيه. وفي يوم شديد الحرارة وأنا أسير في الطريق شعرت بالحر فخلعت سترتي وكنت أرتدي تحتها بلوزة ضيقة بلا أكمام حينها لاحظت أن كل شخص تقريباً كان يسير في الطريق وقف ليحدق فيَّ، أحسست بالإحراج، فأعدت لبس سترتي سريعاً وتعجبت "ما هذا البلد الغريب الذي تثير فيه أذرع عارية مثل هذا الاستهجان!".

أُخبرت أن الشباب من الجنسين لا يتخذون صديقات أو أصدقاء إلا من جنسهم إذ لا يباح للبنات صداقة الأولاد أو للأولاد اتخاذ صديقات، ولا يشربون الخمر ولا يذهبون إلى حفلات الديسكو أو النوادي الليلية. ويقرون بأن بعضهم يفعل ذلك ولكن الناس يعتبرونهم سيئي السلوك.

أثناء زيارتي لأسرة أخرى، قابلت فيها أربع فتيات شقيقات ثلاث منهن يرتدين الحجاب بينما الرابعة غير محجبة. وبما أنهن يتحدثن الإنجليزية انتهزت الفرصة لأسأل عما رأيت. سألتهن كيف يتزوج الشباب إذا كان نظامهم يقوم على الفصل بين الذكور والإناث؟. أخبرنني أنه إذا كان أحد الشباب يرغب في الزواج من واحدة منهن فإنه يتقدم إلى والدها، وإذا وافق الوالد ووافقت هي يهيأ لهما أن يلتقيا ويتحدثا مع بعضهما للتعارف على ألا تتعدى علاقتهما هذه اللقاءات. عندئذٍ يتم الإعداد للزواج، وإذا لم يحدث توافق يفترقا بدون ضرر. أتذكر أنني قلت لنفسي في تلك اللحظة "يا له من نظام بسيط لكنه رائع، نحتاج لهذا في انجلترا، كم من المشاكل التي كانت سوف تحل".

ثم سألت الفتاة غير المحجبة لماذا لا ترتدي الحجاب مثل أخواتها. أجابت: "إني أريد أن أكون مثلك، حرة أفعل ما أشاء، لدي مكاني الخاص، أذهب للرقص كل ليلة وأقيم الحفلات. أظن أن أخواتي غبيات".

نظرت إليها بإشفاق. إنها ترى حياتي كأنها حفلة أُنس واحدة طويلة، لا تدري حقيقة حياة المرأة الغربية؛ الألم، المشاكل، الصراع من أجل البقاء، قلت لها "ليتني أنا أكون مثلك".

كنت أتصور أن تكون أخلاق هؤلاء الناس قاسية وباردة في ظل هذه المبادئ الأخلاقية التي تبدو صارمة. هذا الافتراض بني على الاعتقاد بأن مثل هذه الأخلاق كانت في أيام العهد الفيكتوري في انجلترا، ويظن الناس أن الفيكتوريين قساة وصارمون. مع ذلك ليست هذه هي الحالة في سوريا أبداً. إن حسن الضيافة والكرم الذي وجدته من السوريين كان حقاً غامراً. أحسست بالخجل لعلمي أن هؤلاء الناس إذا جاءوا لبلدي فلن يلاقوا مثل هذه المعاملة حيث يعامل الغرباء دائماً باحتقار.

غالباً ما تكون أسر السوريين ممتدة يعيشون جميعاً تحت سقف واحد أو قريبين من بعضهم بعضاً، وعلاقاتهم قوية ويحافظون عليها حتى مع أقربائهم البعيدين.

لا توجد ملاجئ لكبار السن، إنه لا يتصور إطلاقاً وضع والديك حينما يكبرون أو حتى أجدادك. في مثل هذه البيوت، إنه عمل بربري.

الأسرة عادة ما تكون كبيرة من ستة أو أكثر من الأطفال بعكس الأسرة في انجلترا التي يزداد تقلصها.

قالت لي إحدى النساء "إننا نظن أن الناس في بلدكم لا يحبون الأطفال." أجبت: "إنهم يحبونهم، ولكن ليس الكثير منهم"، لكني شعرت بأنه انتقاد.

إنني أذهل دائماً كيف أن الناس يعرفون الكثير عن بلدي، لكن كم هو قليل الذي أعرفه عن بلدهم. شعرت بأنه أمر مشين لو أخبرتهم بأني لم أكن حتى أعرف أين تقع سوريا. كثير منهم يتحدث بالإنجليزية، لكني لا أعرف أحداً في انجلترا يتحدث العربية.

وجدت أيضا تباينا واضحاً بين موقف الناس تجاه دينهم في انجلترا وسوريا. ففي سوريا حتى أولئك الذين لا يؤدون الشعائر الدينية يحملون احتراماً وحباً كبيراً للإسلام، بينما نجد في انجلترا التعبير السافر عن الاحتقار للدين.

زرت كسائحة المسجد الأموي الكبير في قلب دمشق، ووجدت هناك قبر يوحنا المعمدان. لجهلي قلت بصوت عالٍ "ماذا يفعل يوحنا المعمدان هنا في المسجد؟ وهو مسيحي!".

لم أكن اعرف حينئذٍ أن يوحنا المعمدان يعرفه المسلمون هنا بيحيى ويعتبرونه نبياً عظيماً. وفي الحقيقة يؤمن المسلمون بكثير من الأنبياء الذين يؤمن بهم المسيحيون واليهود. في ذلك الوقت مثل لي هذا لغزاً يحتاج إلى حل.

أحسست بشعور غريب بالانتماء لهؤلاء الناس وعندما رجعت إلى انجلترا شعرت أنني تركت قلبي هناك. شعرت أن الناس يتحدثون عن العرب والمسلمين كأنهم برابرة، لكني بدأت اعتقد إننا نحن البرابرة.

بحثي عن الحقيقة

عدت لانجلترا وأنا منبهرة ومندهشة وأحمل كثيراً من التساؤلات عما رأيت. سوريا وبالرغم من كونها بلداً غريباً عليَّ، لكنها تبدو إلى حد ما مألوفة لي. أتذكر من روايات القرن الثامن والتاسع عشر التي قرأتها ومن القصص التي روتها لي جدتي لأمي إننا كنا نتمسك بمثل هذه القيم الاجتماعية بشدة. ماذا حدث لنا؟ تفسخ نسيجنا الاجتماعي وانهارت أسرنا. هذا بالرغم من إننا أكثر ازدهاراً عما قبل، نزدهر مادياً بينما يبدو أننا نفتقد الروح فينا.

فأصبحت أكثر رغبة في البحث والمعرفة عن دين وثقافة العرب، أحسست بقوة مغناطيسية غريبة تجذبني في اتجاه مهمتي هذه وكنت دائماً لا أفكر بشيء سواها. لسوء الحظ كنت أسيرة بعض الافتراضات الخاطئة. افترضت أن كل العرب مسلمين وأن كل المسلمين عرب. كنت أسكن في منطقة يسكنها الباكستانيون بكثافة، ولكنني لم أتصل بهم، حيث إنني لم أكن أعلم حقاً أنهم مسلمون. اقترح عليَّ أن أذهب إلى المسجد المركزي، حديقة ريجنت في لندن، لكنني أعلم أن المسلمين لديهم أفكار صارمة فيما يلي الأزياء وربما لديهم شروط خاصة بالسلوك داخل المسجد. فخفت إذ ربما أقوم بعمل أو أقول شيئاً خطأً فأقع في مشكلة. لم يكن هناك أي شيء أبعد من الحقيقة من أفكاري هذه وعلمت أخيراً أنهم كانوا سيرحبون بي بحرارة، ولكن الجهل دائماً يولد الخوف.

لم يكن هنالك عرب كثيرون يعملون في المستشفى التي أعمل بها، ولكن كنت أحاصرهم ما استطعت وأمطرهم بوابل من الأسئلة وأعقد معهم مناقشات طويلة حول ملاحظاتي في سوريا ودائماً تأتي نفس الإجابة: الإسلام.

وهكذا تحولت رغبتي بعدئذٍ من الثقافة السورية إلى الإسلام. عرفت القليل جداً عن معتقداته ولم أشعر برغبة من قبل في البحث حتى عن معتقدات ديني. إلا أن مناقشة دارت بيني وبين رجل عربي مسلم كانت نقطة تحول كبرى لي من

مجرد أسئلة فضولية إلى بحث شخصي وحقيقي عن الحقيقة. سألته عما يؤمن به هو حقاً. أجاب ببساطة "الله" أجبته إنني أيضا أؤمن بالله. قال : "لا أنتِ تؤمنين بآلهة متعددة بينما أنا أؤمن بإله واحد". شعرت بالإرباك لهذا. وقلت ماذا تعني؟ "أنا أؤمن بإله واحد فقط!" أجاب: "أنت تؤمنين أن عيسى ابن الله إذن هو أيضاً إله. شعرت بأني ألجمت، حاولت أن اشرح له إنني أيضاً أؤمن أن عيسى ابن الله، ولكن هو نفسه ليس إلهاً. وكلما حاولت أن أشرح طبيعة المسيح أكثر كلما أصبحت أنا نفسي أكثر تشويشاً. بنهاية المحادثة وجدت نفسي مشوشة وقلقة، وفي ذات الوقت شعرت بإصرار ورغبة في تصحيح وجلاء هذه الأشياء في رأسي. لم يحدث قط أن تدبرت في معتقدات ديني من قبل. ولم أفكر فيها بعمق من قبل. ماذا تعني؟ هل هي مقبولة للعقل؟ وهل أؤمن بها حقاً؟.

ثمة شيء واحد فقط لم يكن موضع شك عندي وهو أن هناك حقاً إلهاً واحداً فقط. هل عيسى إله، ابن أبينا الذي في السماء؟ أم هل هو مجرد بشر ونبي الرب؟ لقد أحببت المسيح دائماً وشعرت أن المفهوم الثاني – أي كونه بشراً فيه شيء من الاحتقار له - ، لكنني أود أن أكون على يقين وأن تترسخ في قلبي الحقيقة عن هذا الأمر.

فقرأت إنجيلي ثانية مرات ومرات، ولكنني لم أجد نصوصاً يمكن أن تدعم أي من وجهتي النظر. سمى عيسى نفسه ابن الإنسان، وفي مناقشته مع الفَرّيسيين* سمى نفسه ابن الرب. لم يخطر ببالي في ذلك الوقت أن أتشكك في صحة الأناجيل التي أقرأها، على الرغم من أني كنت مدركة للاختلافات الموجودة والجدل حولها.

ثم حدث ما كان بمثابة نقطة تحول كبرى في رحلة بحثي عن الحقيقة. ففي يوم من الأيام وأثناء زيارة لأسرتي وجدت في مكتبة أبي كتاباً يتحدث عن

---

*هم طائفة من يهود عهد المسيح عُرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة .

أصول الديانات العالمية العظيمة. وفي الجزء الذي يتحدث عن المسيحية قرأت حقائق لم أكن أعرفها من قبل.

قرأت فيه أن في عهد قسطنطين العظيم، انقسم المسيحيون إلى معسكرين معسكر المسيحيين البوليين ومعسكر المسيحيين الآريين. أخذ الآريون مذهبهم من القديس بولس وأيدوا عقيدة التثليث. أما المسيحيون الآريون فلا يعتقدون في ألوهية المسيح ويتبعون مذهب آريوس. كانت الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت مهددة على طول حدودها من الغزاة. وأراد قسطنطين زيادة حجم جيشه لكي يصد التهديد الخارجي. كانت المسيحية قد انتشرت في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. واضطهد الرومان المسيحيين في ذلك الوقت. وبما أن قسطنطين أصبح بحاجة للاستفادة منهم في جيشه فقد قرر أن يجعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية. لكن أي مسيحية؟ في بادئ الأمر لم يستطع أن يقرر، كانت زوجته من أتباع آريوس وحاولت إقناعه بتبني عقيدتهم، إلا أن عدد المسيحيين البوليين يفوق عدد المسيحيين الآريين.

وعليه وفي عام ٣٢٥م جعل قسطنطين المسيحية البولينية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية وأسس المجمع المسكوني، الذي وضع أطر عقيدة التثليث. كل من لم يذعن لهذه العقيدة صنف على أنه زنديقاً. بل أن آريوس نفسه اتهم بالزندقة وتم إعدامه. واضطهدت المسيحية الآريانية وتم القضاء عليها تماماً.

لقد صعقت! عقيدة التثليث تم تأسيسها لمنفعة سياسية لقسطنطين العظيم. كيف يقرر بشر بشأن أمر مهم مثل هل المسيح إله أم لا؟ لأسباب بمثل هذه السطحية.

بالرغم من ذلك لم أصل إلى اليقين المنشود. فبالرغم أن عقيدة التثليث أنشئت رسمياً بمثل هذه الطريقة المريبة إلا أن هذا لم يجعلها في الأساس خطأ في تقديري.

اتجه تفكيري حينها لمعرفة ما يقوله القرآن عن المسيح، إلا أنني اصطدمت بعقبة تقوم أساساً على شيء من سوء الفهم. فقد أخبرت أنه لا يمكن ترجمة القرآن. لكني لا أعرف اللغة العربية. فبدأت أسأل عن حقيقة القرآن وأخبرت أنه وحي مباشر من الله إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) بواسطة الملك جبريل. ومنذ ذلك الوقت لم تتغير فيه كلمة واحدة وهذا ما يؤكد صحته. كما أخبرت أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكتبه لأنه أمِّي. ولأن لغة القرآن جميلة ومتفردة فإن الله تحدى بني البشر للإتيان بمثله. هذا لا ينطبق على الإنجيل. إذ لا يعرف أحد من الذي كتب هذه الكتب المختلفة والمليئة بالمتناقضات والأخطاء والتي لا ينكرها الكثير من المسيحيين.

رغبت بشدة في قراءة القرآن ولكن كيف؟ في ذلك الوقت لجأت إلى سلوكي المعتاد في مثل هذه الحالة وهو الصلاة للرب. هذه المرة صليت طالبة منه أن يرشدني إلى الحقيقة عن كل الأمر. لن يهدأ لي بال حتى أعرف أيهما السبيل الحق.

ثم في إحدى الليالي، وبطريقة غير متوقعة على الإطلاق، جاءت الاستجابة لصلواتي. كنت أعمل في الوردية الليلية في عنبر الأطفال. كانت هناك ممرضة من إحدى الوكالات تعمل معي في الوردية اسمها جويس. أتت من ترنداد ولكنها من أصول آسيوية. كان ليلاً هادئاً وبدأنا نتكلم. سألتني إن كنت قد سافرت خارج البلاد؛ فبدأت أحدثها عن سوريا. ولا شعورياً وجدت نفسي أحدثها عن ملاحظاتي وأفكاري. قالت لي إن كل هذه الأشياء التي نالت إعجابي هي بكل بساطة جزء لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية. دهشت حينما أخبرتني أنها مسلمة، ضحكت وقالت إن المسلمين يمكن أن يأتوا من أي دولة وأن العرب في الحقيقة هم الأقلية. سألتها كيف يمكنها فهم القرآن الذي لا يمكن ترجمته؟ شرحت لي أنه لا يمكن ترجمة القرآن على نحو دقيق وإدراك كل معانيه، لكن هناك عدة ترجمات مختلفة وبلغات مختلفة تعمل بقدر المستطاع لإعطاء أقرب معنى له.

وعدتني جويس بإحضار نسخة من القرآن مترجمة للإنجليزية. بعد أيام قليلة زرتها في منزلها فأعطاني زوجها ترجمة مرمادوك بيكتال للقرآن الكريم. وانصب كل تفكيري في تلك اللحظة على العودة إلى المسكن لأقرأ هذا الكتاب "القرآن". وبمجرد رجوعي لحجرتي أغلقت الباب وبدأت فوراً في القراءة. لم أكن أدري ماذا أتوقع من هذا الكتاب، أهو مثل قراءة كتاب علي بابا وألف ليلة وليلة أم أنه فقط نسخة مجددة من الإنجيل. ما زلت استحضر تلك اللحظة التي قرأت فيها ولأول مرة القرآن؛ فقد كانت لحظة صحوة وانتباهة. الكلمات الافتتاحية لسورة البقرة، استحوذت على فؤادي بطريقة لم أشعر بها من قبل.

"ذَلِكَ الكتابُ لا رَيْبَ فِيهِ" "أي أن هذا القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله تعالى".

صعقتني هذه الكلمات. عندما واصلت القراءة شعرت بقشعريرة تغمرني، اضطربت وذهلت وذلك لأنني أحسست وكأنني أدركت وعرفت بوجداني كل كلمة قرأتها. هذا هو الله الذي آمنت به دائماً، نفس الرب الذي كنت ألجأ إليه في طفولتي، ثم ابتعدت عنه تدريجياً وهو يتحدث إليَّ. إنه حقيقة ثابتة وليس محض خيال غامض.

شعرت كأن أحداً حملني من منكبي وهزني بعنف وأمرني أن أصحو وأدرك حقيقة الوجود وغاياته ومغزاه. كانت الرسالة واضحة ومدوية. هنالك رب، هو الذي خلقنا وسنموت يوماً وسيبعثنا لنقف أمامه ويحاسبنا على أعمالنا. إنه وضع في هذا الكتاب النهج الذي أراد لبني البشر السير عليه. عندما قارنته بحياتي أدركت كم أنا بعيدة عن صراطه إلا أنني شعرت بالامتنان، لأنه أعطاني فرصة للرجوع إلى سبيله.

ظللت طوال الليل مستيقظة وقرأت كل الكتاب، ثم قضيت الليلة التالية أيضا في قراءته مرة ثانية. أتذكر أنني كنت أبكي وارتجف وأدرك من أعمق أعماق قلبي وروحي أن هذا الكتاب هو حقيقة من الله.

عندما فكرت في الحصول على القرآن كان هدفي الحقيقي هو معرفة ما قاله القرآن عن السيد المسيح. لكن طغى ما اكتشفته خلال قراءتي على هذا الهدف . لكن بكل تأكيد وجدت الأجزاء التي تتناول السيد المسيح، وفي الحقيقة جاء ذكر السيد المسيح في عدة مواضع. القرآن لم يصف عيسى بأنه إله كما في الإنجيل. وهذا قد يبدو للمسيحي تقليل من شأن عيسى وقدره. نجد إن الله وضعه في أسمى الدرجات.

إذ قال الله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) سورة آل عمران – الآية (٤٥).

لقد سررت عندما اكتشفت أن الله نجى المسيح من الصلب؛ وذلك في قوله تعالى" (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ إتباع الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) سورة النساء – الآية (١٥٧).

لقد وجدت جزءاً كاملاً خصص للحديث عن أمه مريم وذلك في سورة مريم. يؤمن المسلمون في ولادة عيسى من العذراء، أكثر مما يفعل المسيحيون هذه الأيام، لكن برغم ذلك يعتبر بشر، وقورن خلقه بخلق آدم في الحقيقة كان خلق آدم أصعب حيث إنه من غير أم أو أب، لكن ليس هناك ما يصعب على الله تعالى فهو يقول له "كن فيكون".

قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) سورة آل عمران – الآية (٥٩).

هذا فسر لي ما كان بمثابة لغز وهو معنى تسمية عيسى "كلمة الرب"، التي ذكرت في الإنجيل كما في القرآن. وهي تعني الطريقة التي وصفت بها كيفية خلقه والكلمة ببساطة تعني "كن".

الإسلام

في الأيام التالية قضيت كثيراً من الوقت أفكر وأتأمل ملياً فيما قرأت. فكرتي الأولى الآن هي أنني صرت مقتنعة أن المسيح عيسى هو حقاً كما وصفه القرآن الكريم. نعم إنه هو المسيح. نعم إنه ولد لعذراء. نعم إنه قام بمعجزات بفضل من الله، لكنه هو بشر، وليس إلهاً. وهو نبي عظيم. فكرة أن عيسى هو ابن الله هي عقيدة إيمانية أساسية في المسيحية والمسيحية هي الديانة الرئيسية في بلادي، فإذا كانت هذه الفكرة خاطئة إذن ما الذي يمكن أن يكون خطأ أيضا؟

أحسست كأن عالمي كله انقلب رأساً على عقب، أحسست بأنني خدعت فغضبت فأنا وملايين كثيرة من الناس عبئنا بهذه الأكذوبة لأجيال عديدة. في ذات الوقت أحسست بأن الله أنعم عليَّ وأكرمني حين فتح عيني على الحقيقة. وأن هذا أيضا فتح بصيرتي. فقد أصبح كل شيء عندي موضع تساؤل. ولن أتقبل بعد ذلك الأشياء دون التدبر فيها. وأصبح لدي معيار جديد أحكم به على الأشياء وهو معيار الخطأ والصواب الذي وضعه خالقنا.

بالإضافة إلى ذلك فإنك إذا نظرت إليها بإمعان تجد أن وراءها الكثير من الحكمة. ويمكنك أيضا أن ترى في المجتمع من حولنا وبوضوح العواقب الوخيمة لعدم اتباع هدى الله. هذا في ذاته دليل على صدق هدى الله كما هو دليل على وجود الله.

إن الإسلام ليس عقيدة فقط، بل هو منهج حياة. إنه النهج الذي يرشدنا لبلوغ الكمال كبشر في كل أوجه حياتنا في هذه الدنيا، كأفراد وجماعات. ليس من السهل بلوغ الكمال، وفي الواقع لا يستطيع معظم الناس بلوغ الكمال، ولكن المهم أن نجتهد ونبذل ما في وسعنا لتحقيق ذلك.

أولا: النهج الذي نتبعه لا بد أن يكون كاملاً، مستمداً من مصدر كامل ومتسقاً مع كل أوجه الطبيعة البشرية بواقعية وعلى نحوٍ كامل. لذلك

يجب أن نؤمن أولا بهذا المصدر، ونؤمن بأنه كاملٌ وأن الكامل الأوحد الجامع لكل صفات الكمال أبدياً وأزلياً هو الله العظيم.

ثانياً: إذا آمنت بالله، وآمنت بأن إبداع الخلق هو أقوى برهان على وجوده، فالمنطق والعقل يقول إنه يجب أن تكون صادقاً مع نفسك بقبول واتباع هداه ومنهاجه.

ثالثاً: البشر لديهم الكثير من جوانب الضعف ويمكنهم أن يرتدوا وبسهولة إلى عاداتهم السيئة القديمة، أو إنشاء أخرى جديدة وذلك إما بالنسيان أو الكسل. لذلك من الأهمية بمكان أن يتذكر الإنسان دائماً واجبه بالسعي نحو الكمال وذلك بالذكر الدائم لله. لدينا في الإسلام الصلوات الخمس اليومية، والمناسبات الدينية المختلفة، والأعمال الخيرية. وفي الواقع أن النظام الإسلامي كله موجه نحو جعل الإنسان في حالة ذكر وعبادة دائمة لله بينما المنهج نفسه هو هدى الله. ولقد وصفه الكثيرون بأن العيش في هذه الحياة الدنيا والتوجه بذلك عقلاً وفكراً وعملاً نحو الآخرة.

رابعاً: إذا أحببت الله، فإنك ستتمنى أن تعيش حياتك ابتغاء مرضاته وذلك بالالتزام قدر استطاعتك بأوامره حتى لو تعارضت مع رغباتك الخاصة. هذا الإخضاع لرغباتك من أجل طاعة أوامر الله هو معنى أن تكون مسلماً. وكلما أحببت الله كلما سهل خضوعك لله وأصبح أداء الواجبات متعة.

عليه، إلى ماذا تدعونا هذه الأوامر؟ خلاصة القول أنها تدعونا إلى كل ما هو خير. تدعونا للعطف على الأقارب والعشيرة، على الجار وابن السبيل. وتدعونا إلى مناصرة الحق والعدل، لنعيش حياة طاهرة نقية، مادياً وروحياً وأخلاقياً، وأن نتجنب كل ما يضرنا أيضاً مادياً وأخلاقياً. وأن نحترم الآخرين وأنفسنا كذلك، وأن لا نظلم أو نقبل الظلم. وتدعونا إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين من خلال الإحسان إليهم، وأن ننمي في أنفسنا روح الكرم والعطاء في تعاملنا مع الآخرين. كما تدعونا إلى تعليم أنفسنا والآخرين وألاّ نتخلى أبداً عن بذل جهدنا لتقويم أنفسنا.

مكانة المرأة في الإسلام مثار جدل في نظر غير المسلمين. إذ ينظر للمرأة المسلمة على أنها تابعة للرجل وأنها تعاني الكثير من أنواع الظلم. حاولت ألا يكون مدخلي للإسلام من هذه الزاوية المعينة، ولكن من مدخل إنسان محايد. فأنا معجبة بتعاليمه ومنهجه للحياة ووجدت أن أي جانب من جوانب العقيدة يناسبني ومقبول لدي بغض النظر عن كوني ذكر أم أنثى. وجدت الإسلام يخاطبني أساساً كمخلوق له روح، مخلوق أحاسب أمام الله على أعمالي، مخلوق له حقوق وعليه واجبات وليس هناك تفرقة بين النساء والرجال في هذه النقاط الأساسية كما جاء في القرآن الكريم.

قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة التوبة - الآية (٧١).

إلا أنني كنت أعلم أن هناك بعض الاختلافات في بعض الجوانب المتعلقة بالأداء الفعلي لشعائر هذا الدين، فمثلاً ارتداء الحجاب كنت أعرفه لأنه من الأشياء المعروفة عموماً عن المسلمين. ولأنه ظاهر للعيان فهو من أكثر الشعائر الإسلامية المعروفة ويثير الكثير من الخلاف والجدل بالرغم من أنه جزءٌ صغيرٌ من هذه الشعائر. ومن الغريب أن معظم غير المسلمين يرون أنه رمز للظلم بينما تراه النساء المسلمات رمزاً لكرامتهن وحريتهن.

وكما فهمت بنفسي فإن الإسلام ليس كالديانات الأخرى التي تقول لك فقط كيف يجب أن تكون، فالإسلام أيضاً يوجهك كيف تكتسب عملياً ما ينبغي أن تكون وكيف وتحافظ على ذلك. دعنا مثلاً نأخذ قضية الحجاب المفترى عليه هذا فهو حقيقة جزء من منهج شامل يهدف لتطهير المجتمع من السلوك غير الأخلاقي على المستوى الفردي والمجتمعي. والإسلام ينظر للجنس على أنه وظيفة طبيعية للبشر، للأنثى والذكر معاً، وهو يعطي متعة عظيمة للبشر. وعلى كل حال فهي وظيفة يجب أن تكون مسيطر عليها لأنها ينتج عنها

ذرية. والطريقة الوحيدة المقبولة والطاهرة عند الله لإشباع هذه الرغبة هي في إطار الزواج المشروع وليس خارجه.

وعليه فإن أي طفل يجب أن يولد في بيئة آمنة مستقرة ومحاط بأسرة محبة. وإذا لم تكن هناك سيطرة على هذه الوظيفة ستظهر وتعم الفوضى في المجتمع، مثل الذي نشاهده الآن في جميع أنحاء العالم. الأمهات غير المتزوجات، الأسر المفككة، المعدلات العالية للإجهاض، والأمراض المنقولة جنسياً، بما فيها الإيدز ونسبة عالية من الصدمات العاطفية. والإسلام يسعى إلى منع مثل هذه المشاكل من الظهور في المقام الأول بدلاً عن معالجتها بعد حدوثها، وذلك على النحو التالي:

أولاً: يجب على الرجال والنساء أن يستشعروا دائماً حقيقة أن الله يراقبهم.

ثانياً: يجب أن يلبسوا ملابس محتشمة ويحترموا بعضهم بعضاً.

ثالثاً: عليهم الزواج لحفظ أنفسهم من الوقوع في الإثم.

قال تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ❖ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). سورة النور – الآية (٣٠- ٣١).

وإذن يبقى السؤال لماذا لا يتحجب الرجال كما تفعل النساء؟ إسلامياً يعتبر كل جزء من جسم المرأة جميلاً، فالله خلقها لتكون جذابة في عين زوجها حتى يضمن تكاثر الجنس البشري. وعليه لم يخلق جسدها ليكون وسيلة للاستغلال وسوء المعاملة. بل على العكس فإن جسد الأنثى جدير بدرجة عالية من الاحترام

لأنه ينجب حياة جديدة. وعليه يجب على المرأة في الإسلام أن تغطي كل جزء من جسدها ما عدا وجهها وكفيها لتبعث برسالة للكل بأنها امرأة طاهرة ولن تترك نفسها عرضة للاستغلال والتحرش والإساءة.

الحركة الأنثوية الغربية لديها وجهة نظر مشابهة بالنسبة للاستغلال الجنسي من الرجال للنساء. لكن كان حلها للمشكلة هو نبذ مظاهر الأنوثة مثل الشعر الطويل والزينة والملابس الجميلة وغيرها. أما في الإسلام فبإمكان النساء المسلمات أن يستمتعن بكل هذه الأشياء، بل هن يُشجعن على ذلك حقاً شريطة عدم إظهارها للملأ والتحجب عند خروجهن من منازلهن.

إن الاختلافات الوحيدة التي وجدتها بين الرجال والنساء لاحظت أنها تتعلق بحماية وسلامة جسد المرأة ولجعل الحياة سهلة بالنسبة لها. أعفيت المرأة من الصلوات الخمس اليومية والصوم أثناء الحيض أو النفاس. كما أعفيت من عبء المسؤولية المالية للأسرة بما يمكنها من أن تركز على دورها المهم وهو رعاية وتنشئة أطفال أصحاء ومتزنين. إنها لم تمنع من الخروج للعمل، لكن ليس عليها إلزام لأداء ذلك.

كما للمرأة الحق في الإرث، وهي في بعض الحالات تستحق نصف نصيب الرجل. وإذا أخذنا في الاعتبار أن مسؤولية الإنفاق على الأسرة تقع على عاتق الرجل وليس على المرأة أن تنفق أي مليم وربما تحتفظ بأي شيء ورثته لنفسها، هنا يمكن للمرء أن يرى عدالة هذا الأمر. ويعتبر وضع المرأة أعلى من وضع الرجل في بعض الأمور، على سبيل المثال دورها كأم. فهناك حديث مشهور عن بر الوالدين:-

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أبوك).

والإسلام أول نظام يحدد حقوق للمرأة وذلك منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، في زمان كانت فيه الكنيسة تعتقد أن النساء ليس لديهن روح. والفرق الجوهري في الحقوق التي وضعها الإسلام للمرأة هو كونها حقوق إلهية، ولا يحق لرجل أو امرأة إنكار هذه الحقوق وحرمان المرأة منها. بل حقيقة الأمر أنه على الذي يخاف الله رجلاً كان أم امرأة الحرص على أن تنال المرأة هذه الحقوق. إنها ليست اختيارية، لكنها فرض وواجب. والحقوق هي حق الحياة والتعليم والانتخاب واختيار الزوج بحرية و حق التملك والثراء وصرف مالها حسب رغبتها وحق الإرث والطلاق. وهي نفس الحقوق الأساسية للرجل.

عند اكتشافي لكل هذه الحقائق عن الإسلام، لم أتردد في أخذ سبيل الإسلام، بل بالعكس تماماً، شعرت أنني أكثر اقتناعاً لأنني أفعل الشيء الصحيح. وبعد اعتناقي الإسلام وجدت أنني عوملت بتوقير تام من الرجال المسلمين. وما زلت أشعر بدهشة حتى اليوم من القصص التي سمعتها عن المعاملة السيئة التي تلقاها النساء المسلمات من الرجال. وأنا ما زلت انتظر بعد خمسة عشر عاماً ليحدث لي ذلك.

نهاية الرحلة

في الشهور الأولى من اعتناقي الإسلام شعرت وكأن عقلي يقوم بعملية إعادة ترتيب للأشياء. الأمر كان أشبه بترتيب غرفة تتسم بالفوضى، حيث نقوم بتنظيم الأشياء فيها، فنضع الأشياء التي لا نحتاج إليها بعيداً ونرمي ما لا فائدة فيه في سلة النفايات.

كنت أعيش حالة تغيير داخلي كبير. وهي حالة وصفها زميل لي اعتنق الإسلام قبلي بأنها إعادة برمجة. إلا أنني احتفظت بكل شيء لنفسي. رغم أنني شعرت برغبة شديدة بالحديث عنها لأحد ما. كنت ما زلت أعاني من نفس الهواجس التي عانيتها من قبل. أحسست بأن لا أحد سيفهمني. أعرف أنني مسلمة، لكن مسلمة إنجليزية؟ من الذي سمع شيئاً كهذا؟.

كنت أدرك جيداً أنه إذا أردت أن أكون صادقة مع الله فإنه يجب ألا تتغير كوامن نفسي فقط، بل يجب أن تتغير طريقة حياتي أيضاً. لم أدرك في ذلك الوقت أهمية الحاجة لدعم ومساندة المسلمين لي في هذه المرحلة، وحاولت عمل كل شيء بنفسي. كان حالي أشبه بالإبحار في مركب مسرعة نحو شلال وهي بلا مجداف؛ فلكي أعيش حياة إسلامية تعنى في الأغلب السباحة ضد تيار مجتمعي. فإذا كنت وحدك فهي مهمة صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة.

أوقفت تناول الكحول وأكل الخنزير، وكان هذا أمراً سهلاً. كان هنالك كتيباً بداخل النسخة المترجمة التي أعطاني إياها زوج زميلتي. أرشدني هذا الكتيب إلى كيفية أداء الصلوات الخمس اليومية. لم استطع تحديد اتجاه القبلة ولا الأوقات المحددة للصلاة، والكلمات العربية المكتوبة بالأحرف الإنجليزية كانت صعبة، لكني اجتهدت في الصلاة بها. الدفعة الروحية القوية التي أعطتني إياها هذه الآيات يصعب وصفها بالكلمات. شعرت بأنني أسمو عالياً وأمر بهدوء غريب ولا بد أنه أحد الأسباب التي سُميَّ بها هذا الدين – الإسلام – أي السلام.

والإسلام أول نظام يحدد حقوق للمرأة وذلك منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، في زمان كانت فيه الكنيسة تعتقد أن النساء ليس لديهن روح. والفرق الجوهري في الحقوق التي وضعها الإسلام للمرأة هو كونها حقوق إلهية، ولا يحق لرجل أو امرأة إنكار هذه الحقوق وحرمان المرأة منها. بل حقيقة الأمر أنه على الذي يخاف الله رجلاً كان أم امرأة الحرص على أن تنال المرأة هذه الحقوق. إنها ليست اختيارية، لكنها فرض وواجب. والحقوق هي حق الحياة والتعليم والانتخاب واختيار الزوج بحرية و حق التملك والثراء وصرف مالها حسب رغبتها وحق الإرث والطلاق. وهي نفس الحقوق الأساسية للرجل.

عند اكتشافي لكل هذه الحقائق عن الإسلام، لم أتردد في أخذ سبيل الإسلام، بل بالعكس تماماً، شعرت أنني أكثر اقتناعاً لأنني أفعل الشيء الصحيح. وبعد اعتناقي الإسلام وجدت أنني عوملت بتوقير تام من الرجال المسلمين. وما زلت أشعر بدهشة حتى اليوم من القصص التي سمعتها عن المعاملة السيئة التي تلقاها النساء المسلمات من الرجال. وأنا ما زلت انتظر بعد خمسة عشر عاماً ليحدث لي ذلك.

نهاية الرحلة

في الشهور الأولى من اعتناقي الإسلام شعرت وكأن عقلي يقوم بعملية إعادة ترتيب للأشياء. الأمر كان أشبه بترتيب غرفة تتسم بالفوضى، حيث نقوم بتنظيم الأشياء فيها، فنضع الأشياء التي لا نحتاج إليها بعيداً ونرمي ما لا فائدة فيه في سلة النفايات.

كنت أعيش حالة تغيير داخلي كبير. وهي حالة وصفها زميل لي اعتنق الإسلام قبلي بأنها إعادة برمجة. إلا أنني احتفظت بكل شيء لنفسي. رغم أنني شعرت برغبة شديدة بالحديث عنها لأحد ما. كنت ما زلت أعاني من نفس الهواجس التي عانيتها من قبل. أحسست بأن لا أحد سيفهمني. أعرف أنني مسلمة، لكن مسلمة إنجليزية؟ من الذي سمع شيئاً كهذا؟.

كنت أدرك جيداً أنه إذا أردت أن أكون صادقة مع الله فإنه يجب ألا تتغير كوامن نفسي فقط، بل يجب أن تتغير طريقة حياتي أيضاً. لم أدرك في ذلك الوقت أهمية الحاجة لدعم ومساندة المسلمين لي في هذه المرحلة، وحاولت عمل كل شيء بنفسي. كان حالي أشبه بالإبحار في مركب مسرعة نحو شلال وهي بلا مجداف؛ فلكي أعيش حياة إسلامية تعنى في الأغلب السباحة ضد تيار مجتمعي. فإذا كنت وحدك فهي مهمة صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة.

أوقفت تناول الكحول وأكل الخنزير، وكان هذا أمراً سهلاً. كان هنالك كتيباً بداخل النسخة المترجمة التي أعطاني إياها زوج زميلتي. أرشدني هذا الكتيب إلى كيفية أداء الصلوات الخمس اليومية. لم استطع تحديد اتجاه القبلة ولا الأوقات المحددة للصلاة، والكلمات العربية المكتوبة بالأحرف الإنجليزية كانت صعبة، لكني اجتهدت في الصلاة بها. الدفعة الروحية القوية التي أعطتني إياها هذه الآيات يصعب وصفها بالكلمات. شعرت بأنني أسمو عالياً وأمر بهدوء غريب ولا بد أنه أحد الأسباب التي سُميَّ بها هذا الدين — الإسلام — أي السلام.

أما إعلان إسلامي على الملأ فهو شيء آخر، كنت أرغب في ارتداء الزى الإسلامي، لكن هذا سيعلن للجميع أنني مسلمة. خفت مما ستقوله أسرتي وأصدقائي، وخفت أن أفقد وظيفتي. وكممرضة هنالك إجراءات صارمة فيما يخص الزي على الالتزام بها وكنت أعرف أنهم لن يقبلوا الزي الإسلامي.

قررت أن ألبس باحتشام ما استطعت، لكن لم أغطي رأسي أو أرتدي ملابس طويلة. لم أعد أخرج مع صديقاتي إلى النوادي الليلية أو الحفلات وأقضي معظم وقتي في حجرتي أقرأ وأفكر. أصبحت تدريجياً أكثر عزلة دون أن أشعر بذلك. وبالرغم من شعوري بسعادة غامرة إلا أنني كنت أشعر بالوحدة في بعض الأوقات.

لاحظت بعض صديقاتي ما حدث لي من تغيير وبدا هذا مقلقاً لهن لدرجة أنهن عبرن عن هذا القلق لأستاذ التمريض. استدعاني الأستاذ واستفسر عما إذا كنت عادية أم أن هنالك مشكلة أعاني منها. بل ذهب إلى أبعد من ذلك وقال ربما تكون مهنة التمريض هي التي جعلتني غير سعيدة وربما يجب عليّ أن أفكر في مهنة أخرى. لم أعرف ماذا أقول له سوى أنني بخير وأنه ليس لدي مشاكل.

لم أدر بأن الناس سوف يهتمون بي وأدركت بوضوح ولأول مرة بأنني أعزل نفسي ولن أستطيع أن استمر على هذا المنوال.

فكرت في الذهاب إلى المسجد المركزي في لندن للمساعدة، لكن خفت مرة أخرى. لم أكن أعرف شروط المسجد، فربما أقول أو أفعل خطأ ما، ثم ماذا عن ملابسي؟ ربما لا يدركون أنني فعلاً مسلمة ويقذفون بي خارجاً. كل هذه المخاوف منعتني من الذهاب. لكن كانت الحقيقة هي أن الناس في المسجد كانوا سيرحبون بي ويستقبلونني بالأحضان.

من ناحية أخرى لا أعرف سوى القليل جداً من المسلمين معرفة شخصية. وهؤلاء الذين أعرفهم غير ملتزمين بشعائرهم الدينية ويعرفون القليل عنها.

الاختلاف الوحيد الواضح بينهم وبين الآخرين في المجتمع هو أنهم يحملون أسماء إسلامية.

أكاد أشعر بضغط المجتمع الذي أعيش فيه من حولي والذي دائماً ما يكون مليئاً بعناصر التحدي لأفكاري الجديدة عن الطريقة التي يجب أن أعيش بها. لا يمكنني تحدي كل المجتمع بمفردي ورفض التكيُّف معه، كما لا يمكنني أن أظل منعزلة للأبد. أدركت حينها أنني احتاج للمساعدة، لكن كيف ومن أين؟.

الإجابة كانت في منتهى البساطة فقد تذكرت أن هناك إرساليات مسيحية، وعليه ربما تكون هناك إرساليات إسلامية أيضا. لم يكن أمامي سوى النظر في دليل الهاتف وهناك ولحسن حظي وجدت رقم البعثة الإسلامية الإنجليزية. ترددت في بادئ الأمر، إذ لا أدري كيف استجمعت كل شجاعتي واتصلت بهم. قلت مباشرة "أريد أن أكون مسلمة، لكني لا أعرف ماذا أفعل". كانت الإجابة المتلهفة "تعالي إلى هنا، تعالي إلى هنا!" ذهبت لمكتبهم في نفس اليوم وأعلنت إسلامي وأديت الشهادة:-

"أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله".

هذا كل ما يحتاج الشخص قوله ليدخل الإسلام. بالطبع لا بد من قولها بإخلاص ومن القلب، لكن لا أحد يعلم إخلاصك إلا الله ثم نفسك.

اعتنقت الإسلام في سبتمبر ١٩٨٣م ولم أندم على فعل ذلك أبداً. وما زالت عملية التعلم والتعرف على الإسلام مستمرة لأن الإسلام يغطي كل مناحي الحياة وما من أحد يعلم كل شيء عن الحياة إلا الله.

يتعرض الإسلام للهجوم المستمر في وسائل الإعلام العالمية نتيجة للخوف منه والجهل به ومن المحتمل أيضا أن يكون لخدمة أهداف سياسية لدول معينة. إلا أنني اعتقد أن أي باحث مخلص وراء الحقيقة ولديه عقل مفتوح لا يسمح لأفكار

منحازة للتأثير عليه، إذا درس الإسلام سيلاحظ بسهولة أنه الحقيقة وسيقبله. ربما عندئذٍ يدرك الباحثون لماذا الإسلام أسرع الديانات انتشاراً خاصة في الغرب.

أنا الآن مسلمة لأكثر من ١٥ عاماً وليس هناك يوم واحد، بل ولا ثانية ندمت فيها على ذلك.

من أعظم التغيرات التي حدثت لي هي إحساسي بالطريقة التي أصبح بها عقلي متفتحاً، وأصبحت أكثر إدراكاً للقضايا المهمة المحلية والعالمية معاً. وبما أن المسلمين يأتون من كل دولة من دول العالم ويشعرون أنهم جزء من الأسرة المسلمة الكبيرة عليه فإنك تشعر بأنك معني حين تسمع بالمشكلات التي تواجه إخوانك المسلمين في الدول الأخرى، سواء كانت في البوسنة أو فلسطين أو كشمير. إن الحب المتبادل بين المسلمين بغض النظر عن اللون أو المركز الاجتماعي أو البلد ينطلق من حبهم لنفس الرب. حب الله هو الذي يوحد قلوب كل الذين يحبونه وهذه هي الرابطة التي يمكن أن تكون أقوى من رابطة الدم.

أشعر أيضاً أن نظرتي العامة للحياة فيما يخص النواحي المادية قد تغيرت. قبل إسلامي كان اعتقادي أن النجاح أو الفشل يقاس بمقدار ما اكتسبت من مال أو وظيفة أو مركز اجتماعي. لذا كان يجب بذل كل الجهود من أجل تحقيق هذه الأشياء. وبعد إسلامي شعرت أن النجاح الحقيقي يتحقق فعلاً بكسب رضاء الله وأن تحيا حياة ملؤها التقوى. أما الممتلكات المادية فهي بكل بساطة وسيلة لغاية وليست غاية في حد ذاتها. لم أعد أشعر بالحرمان إذا لم امتلك ملابس حديثة الموضة، بدأت في الحقيقة اشتري الأشياء لأنني احتاجها وبطريقة عملية، ليست من أجل استعراضها أمام الأصدقاء والجيران أو من أجل امتلاكها فقط. وهذا السلوك ينمي في الإنسان روح الإحسان، وذلك لأنك أصبحت ترى أن كل شيء لله؛ فحياتك وثروتك هي أمانة في يدك ولكن يبقى الاختيار في حسن أو سوء استخدامها. فأنت تعلم أن هذه الحياة ليست هي نهاية

المطاف، ولكن هناك حياة أخرى ستحاسب فيها على ما فعلت من خير أو شر في هذه الحياة الدنيا.

وعليه فبدلاً من شراء الذهب والملابس الغالية التي لا تحتاجها أعطي هذا المال للمحتاج، وسيجزيك الله أحسن الجزاء في الحياة الآخرة وهذا هو الفوز العظيم.

مع كل هذا فإن أعظم تغيير في حياتي هو الإحساس مرة أخرى بأنني أكثر قرباً من الله. إنه معي في كل مناحي حياتي اليومية وأذكره دائماً. الصلوات الخمس اليومية ذكر دائم. التزم عندما آكل أو أشرب بأن يكون ذلك مما أباحه لي الله وهو كل شيء نقي وليس الخنزير أو الكحول وهذا نوع من ذكر الله. عندما أخرج وارتدي الزي الإسلامي فأنا أذكر الله. إن أعظم طمأنينة للقلب والعقل يشعر بها الإنسان تكون عندما يكون الإنسان في أمن مع الله وهذا يتحقق عندما يطيع الإنسان الله. هذا هو معنى الإسلام – السلام من خلال التسليم لله.

عندما أعود بالذاكرة للوراء لأيامي قبل إسلامي وأتذكر كل ما رأيت وفعلت، وأشعر أن جذور كل هذه المشاكل تكمن في أن الناس قد نسوا الله ولا يذكرونه إلا قليلاً وعادة عندما تواجههم المصائب. كما أتذكر أيضاً انقباض قلبي واستيائي لعدم معرفتي بما هو الصواب وما هو الخطأ، وأنا أسعى أن اتبع سبيل الله، ولكن لا أعرف كيف. أتذكر افتقاري للشجاعة وخوفي، ولكن الآن اشعر بأني واثقة من آرائي ومن نفسي. ذلك لأني استمد أفكاري من الله لأنه هو العليم. لقد استعدت شجاعتي وأحس بالفخر لكوني مسلمة وأمشي بين أهلي بدون خوف.

وكمسلمة أحس بالإحباط الشديد. هذا الإحباط سببه أنني أتوق إلى توضيح حقيقة الإسلام للناس من حولي. وأتوق للتصدي للصورة المشوهة التي تعرضها وسائل الإعلام عن الإسلام. وعندما أرى حجم وخطورة المشكلات التي

يعاني منها مجتمعي وعندما أرى كم يعاني الناس في هذا المجتمع أشعر وكأنني أريد أن أصرخ وبأعلى صوت قائلة: " إنني أملك الحل لكل هذه المشاكل" فأنا أعلم يقينا أن الحل يكمن في الإسلام منهج الله للإنسانية.

فإن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لوحدنا فوق هذه الأرض لنتخبط بدون وعي، ونرتكب الأخطاء واحدة تلو الأخرى. لقد أمدنا الله تعالى بدليل، هو الهادي للحياة وإني لأحمد الله الذي هداني إلى هذا الهدي وهذا المنهاج.

سمية جيمس

مركز دراسات المرأة

نشأ في نوفمبر من عام ١٩٩٧م بمبادرة من مهتمات وحريصين فكان بعض مما يهتم به توثيقياً:

١ / رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة.

٢ / الطالبة الجامعية في السودان – المشاكل والحلول.

٣ / المنظمات الطوعية النسوية بالسودان.

٤ / دراسة حول مشاريع الصحة الإنجابية في السودان.

٥ / سلسلة المرأة والعولمة.

٦ / المرأة النازحة في السودان.

٧ / المرأة والمشاركة السياسية.

٨ /المرأة وثورة الاتصالات.

٩ / نهضة المرأة والثقافة المادية والتمركز حول الجسد.

١٠ / WOMAN & HUMAN RIGHT

١١ / THE NEW VISIONS FOR THE ALLEVIATION/ ERADICATION OF POVERTY IN THE SOUTHERN SUDAN SOCIETY

١٢ / MY JOURNEY TO ISLAM

ترجمة كتابي :

رحلتي للإسلام.

رؤية جديدة لمكافحة الفقر في جنوب السودان.

